سـورة القصص

هى مكية كلها على ما روى الحسن وعطاء وطاوس وعكرمة ، وقال مقاتل : إلا من آية ٥٢ إلى ٥٥ فمدنية ، وإلا آية ٨٥ فقد نزلت بالجحفة أثناء الهجرة إلى المدينة .

وآيها ثمان وثمانون ، نزلت بعد النمل .

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

(١) إنه سبحانه بسط فى هذه السورة ما أوجز فى السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصل ما أجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بنى إسرائيل الذى أوجب إلقاء موسى حين ولادته فى اليم خوفا عليه من الذبح ثم ذكر قتله القبطى ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بابنته ، ثم مناجاته لربه .

(٢) إنه أجمل فى السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ، وبسطه هنا أتم البسط .

(٣) إنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله هنا فى قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ » الآيات .

(٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك هنا ، وهكذا من المناسبات التى تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي

نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(٥)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .

شرح المفردات

نتلو عليك : أى نتلو عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعا : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ، ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا ، يستضعف : أى يجعلهم ضعفاء مقهورين ، والطائفة هنا هم بنو إسرائيل ، ونمن : أى نتفضل ، والأئمة : واحدهم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ، ويقال مكّن له إذا جعل له مكانا موطأ ممهدا يجلس عليه ، والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها ، وهامان وزير فرعون ، يحذرون : أى يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بنى إسرائيل .

الإيضاح

(طسم) تقدم أن قلنا إن أجلّ الآراء فى هذه الحروف المقطعة أنها حروف استعملت أول الكلام للتنبيه ، كما استعملت (يا) فى النداء و (ألا) ونحوها للتنبيه ، وينطق بها بأسمائها هكذا (طاسين ميم) .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات الكتاب الذى أنزلته إليك أيها الرسول واضحا جليا كاشفا لأمور الدين وأخبار الأولين ، لم تتقوله ولم تتخرصه كما زعم المشركون المنكرون له ولرسالة من أوحى إليه .

ثم ذكر ما هو كالدليل على أنه وحى يوحى وليس هو من وضع البشر فقال :

(نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون) أى نتلو عليك بعض أخبار موسى ومحاجته لفرعون وغلبته إياه بالحجة ، و إخبار فرعون وجبروته وطغيانه وكيف قابل الحق بالباطل ولم تجدِ معه البراهين الساطعة والمعجزات الواضحة ، فأخذناه أخذ عزيز مقتدر فكانت عاقبته الدمار والوبال وأُغْرِق ومن معه من جنده أجمعون، نتلوها عليك تلاوة على وجه الحق كأنك شاهد حوادثها ، مبصر وقائعها ، تصف ما ترى وتبصر عيانا ، لقوم يصدقون بك وبكتابك لتطمئن به قلوبهم وتثلج به صدورهم ويعلموا أنه الحق من ربهم وأن سنته فيمن خالفك وعاداك من المشركين هى سنته فيمن عادى موسى ومن آمن معه من بنى إسرائيل، وأن النصر دائما للمتقين ويخزى الله المكذبين : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

وإنما جعل التلاوة للمؤمنين وهو يتلى على الناس أجمعين ، لبيان أنه لا يعتبر بها إلا من كان له قلب واع وأذن سامعة تذكر وتتعظ بآياته ، أما من أعرض عنه ، وأبى واستكبر ، وقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلا تفيده الآيات والنذر ، ولا يلقى له بالا ، ولا يعى ما فيه من حكمة ، ولا ما يسوقه من عبرة ، فهو على نحو ما حكى الله عنهم : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » .

ثم فصل هذا المجمل ووضحه بقوله :

(إن فرعون علا فى الأرض) أى إن فرعون تجبر فى مصر وقهر أهلها وجاوز الحدود فى الظلم والعدوان وساس البلاد سياسة غاشمة .

ومما مكّن له فى ذلك ما بينه الله سبحانه بقوله :

(وجعل أهلها شيعا) أى وفرقهم فرقا مختلفة ، وأحزابا متعددة ، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء ، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجمعوا على رأى ، ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض ، وبذا يلين له قيادهم ، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم ، وتلك هى سياسة الدول الكبرى فى العصر الحاضر ، وذلك هو دستورها فى حكمها

لمستعمراتها ، وقد نقش حكامها فى صدورهم واتجاههم فى سياستهم « فرق تسد » وطالما أجدت معهم فى سياسة تلك البلاد ، وهى أعظم نفعا فى البلاد التى يعمها الجهل ويطغى على أهلها حب الظهور ويرضون بالنُّفَاية والقشور .

رُحْمَاك اللهم رحماك ، بسطت لعبادك سنتك فى الأكوان ، وأبنت لهم طبيعة الإنسان ، وأنه محب للظلم والعدوان .

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

(يستضعف طائفة منهم) أى يجعلهم أذلاء مقهورين ، يسومهم الخسف ، ويعاملهم بالعسف ، وهم بنو إسرائيل .

ثم فسر هذا الاستضعاف بقوله :

(يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) أى يذبح أبناءهم حين الولادة ، وقد وكل بذلك عيونا تتجسس ، فكلما ولدت امرأة منهم ذكرا ذبحوه ، ويستبقى إناثهم ، لأنه كان يتوجس خيفة من الذكران الذين يتمرسون مختلف الصناعات ، وبأيديهم زمام المال ، فإذا طال بهم الأمد استولوا على المرافق العامة وغلبوا المصريين عليها ، والغلب الاقتصادى فى بلد ما أشد وقعا وأعظم أثرا فى أهلها من الغَلَب الاستعمارى ، ومن ثمّ لم يشأ أن يقتل النساء .

روى السُّدّى أن فرعون رأى فى منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بنى إسرائيل ، فسأل علماء قومه ، فأخبره الكهنة أنه سيخرج من هذا البلد رجل يكون هلاك مصر على يديه ، فأخذ يفعل ما قص علينا الكتاب الكريم .

قال الزجاج : والعجب من حمق فرعون ، فإن الكاهن الذى أخبره بذلك إن كان صادقا عنده فما ينفع القتل ، وإن كان كاذبا فلا داعى للقتل .

ولا يعنينا من أمر هذه الرواية شىء ، فسواء صحت أو لم تصح ، فإن السرّ المعقول ماقصصناه عليك أوّلا .

ثم علل اجتراحه لتلك الجرائم و إزهاقه للأرواح البريئة بقوله :

(إنه كان من المفسدين) ومن ثم سولت له نفسه أن يفعل ما فعل من تلك الفظائع وقتل سلائل الأنبياء بلا جريمة ارتكبوها ، ولا ذنب جنوه ، وقد كانت هناك وسائل عديدة ليصل بها إلى اتقاء شرور اليهود على حسب مايزعم ، وكان له فيها غُنْيَة عن سفك الدماء ، ولكن قساة القلوب غلاظ الأكباد تتوق نفوسهم إلى الوُلوغ فى الدم و يجعلونه الترياق الشافى لحزازات نفوسهم ، وسخائم أفئدتهم .

ثم ذكر ما أكرم به هذا الشعب وما أتاح له من السلطان الدينى والدنيوى فأسسوا دولة عظيمة فى بلاد الشام وصاروا يتصرفون فى أرض مصر كما شاءوا فقال :

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض) أى ونريد أن نتفضل بإحساننا على من استضعفهم فرعون وأذلهم ، ونفجيهم من بأسه وتريهم فى أنفسهم وفى أعدائهم فوق ما يحبون ، وأكثر مما يؤملون .

(ونجعلهم أئمة) مقتدى بهم فى الدين والدنيا .

(ونجعلهم الوارثين) لملك الشام لاينازعهم فيه منازع ، وقد جاء فى آية أخرى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » وفى ثالثة « كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

(ونمكن لهم فى الأرض) أى ونسلطهم على أرض مصر يتصرفون فيها كيفما شاءوا بتأييدهم بكليم الله ثم بالأنبياء من بعده .

ثم بين ما نال عدوهم من النكال والوبال فقال :

(ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) أى ونرى أولئك الأقوياء والأعداء الألداء على أيدى بنى إسرائيل من المذلة والهوان وما كانوا يتوقعونه من زوال الملك والسلطان على يد مولود منهم ، ولكن لاينجى حذر من قدر ، فنفذ حكم الله الذى جرى به القلم من القدم على يد هذا الغلام الذى احترز من وجوده وقتل بسببه ألوفا من الولدان ، وكان منشؤه ومرباه على فراشه وفى داره ، وغذاؤه

من طعامه وكان يدلله ويتبناه ، وحتفه وهلاكه وهلاك جنوده على يديه ، ليعلم أن رب السموات والأرض هو الغالب على أمره ، الشديد المحال الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وخلاصة ما سلف :

(١) إن فرعون علا فى الأرض . (٢) استضعف حزبا من أحزاب مصر . (٣) قتل الأبناء . (٤) استحيا النساء . (٥) إنه كان من المفسدين .

وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكرمة لبنى إسرائيل :

(١) إنه منّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته :

(٢) إنه جعلهم أئمة مقدمين فى الدارين .

(٣) إنه ورّثهم أرض الشام .

(٤) إنه مكن لهم فى أرض الشام ومصر .

(٥) إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم على أيديهم .

هذان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار ، سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » .

انظر إلى الدولتين الفارسية والرومية وما كان لهما من مجد باذخ وملك واسع ، كيف دالت دولتهما وذهب ريحهما بظلم أهلهما وتقسيم ملكهما ، ثم قامت بعدهما الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش ، ثم قام بعدها بنو عثمان وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية ثم هرمت دولتهم وشاخت واستولت عليها ممالك أوربا . « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) .

شرح المفردات

الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل ، والحزن : (بفتحتين و بضم فسكون كالرُّشْد والرَّشَد والسُّقْمُ والسَّقَمُ) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل ، و اليم : البحر ، والمراد هنا نهر النيل ، والالتقاط : أخذ الشىء فجأة من غير طلب له ، والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى الرأى وهو ضد الصواب والمراد به الشرك والعصيان بالله ، وقرت العين به : فرحت به وسرت ، فارغا : أى خاليا من العقل لما دهها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه نحو ما جاء فى قوله : « وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاء » أى خلاء لاعقول بها ، والإبداء : إظهار الشيء ، والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته ، وقصيه : أى اقتفى أثره وتتبعى خبره ، فبصرت به : أى أبصرته ، عن جنب : أى عن بعد ، لايشعرون : أى لايدرون أنها أخته ، حرمنا : أى منعنا ، يكفلون : أى يضمنون رضاعه والقيام بشئونه ، والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ما ينفعه فى غذائه وتربيته ولا يقصرون فى خدمته .

الإيضاح

بعد أن ذكر سبحانه أنه سيمن على بنى إسرائيل الذين استضعفوا فى الأرض ، أردف ذلك بتفصيل بعض نعمه عليهم فقال :

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) أى وألهمناها وقذفنا فى قلبها أن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه عن عدوه وعدوك .

(فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى) أى فإذا خفت عليه من جواسيس فرعون ونقبائه الذين يقتلون أولاد بنى إسرائيل اتباعا لأمره أو من الجيران أن ينمّوا عليه إذا سمعوا صوته ، فألقيه فى النيل ولا تخافى هلاكه ، ولا تحزنى لفراقه ، وقد تقدم فى سورة طه بيان الكيفية التى ألقته بها فى اليم .

روى أن دارها كانت على الشاطئ فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وألقته فى النيل وليس هناك من دليل على الزمن الذى قضته بين الولادة والإلقاء فى اليم .

ثم وعدها سبحانه بما يسليها ويطمئن قلبها ويملؤه غبطة وسرورا ، وهو رده إليها وجعله رسولا نبيا فقال :

(إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) أى إنا رادو ولدك إليك للرضاع وتكونين أنت مرضعه ، وباعثوه رسولا إلى هذا الطاغية وجاعلو هلاكه ونجاة بنى إسرائيل مما هم فيه من البلاء على يديه .

وهذه الآية اشتملت على أمرين : أرضعيه وألقيه ، ونهيين : لاتخافى ولا تحزنى ،

وخبرين : إنا رادوه إليه وجاعلوه . و بشارتين فى ضمن الخبرين : وهما الرد والجعل من المرسلين ، حكى عن الأصمعى قال : سمعت أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبى كله قبّلت إنسانا بغير حله

مثل الغزال ناعما فى دَلّه فانتصف الليل ولم أصلّه

فقلت : قاتلك الله ماأفصحك! قالت أو بعد هذا فصاحة مع قوله تعالى: وأوحينا إلى أم موسى الآية ؟ فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين و بشارتين .

ثم ذكر صدق وعده ومقدمات نجاته فقال :

(فالتقطه آل فرعون) أى فأخذه أهل فرعون أخذ اللقطة التى يعنى بها وتصان عن الضياع صبيحة الليل الذى ألقى فيه بالتابوت .

روى أن الموج أقبل به يرفعه مرة ويخفضه أخرى حتى أدخله بين الأشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى امرأته إلى الشط فوجدن التابوت فأدخلنه إليها وظنن أن فيه مالا ، فلما فتحنه وجدن فيه غلاما فوقعت عليها رحمته فأحبته .

ولما أخبرت فرعون به أراد أن يذبحه إذ قال إنى أخاف أن يكون هذا من بنى إسرائيل وأن يكون هلاكنا على يديه ، فلم تزل تكلمه حتى تركه لها .

ثم ذكر سبحانه أن العاقبة كانت ضد ما قصدت فقال :

(ليكون لهم عدوا وحزنا) أى لتكون عاقبة أمره كذلك إذ أراد الله هذا ، وهذا كما تقول لآخر تؤنبه على فعل كان قد فعله وهو يظن نفسه محسنا فيه وأدى الأمر إلى مساءة وضرّ قد لحقه : فعلت هذا لضر نفسك ، وهو قد كان حين الفعل راجيا نفعه غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما يرجو ، وهذا جار على سنن العرب فى كلامهم فيذكرون الحال بالمآل ، قال شاعرهم :

وللمنايا تربى كل مُرْضِعَةٍ وَدُورُنا لخراب الدهر تَبْنِيها

وقال آخر :

فللموت تغذو الوالدات سِخَالَها كما لخراب الدهر تُبْنَى المساكن

فعاقبة البناء الخراب و إن كان فى الحال مفروحا به ، وعاقبة تغذية السخال الذبح و إن كانت الآن تغذى لتسمن .

والخلاصة — إن الله قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا ، ويستبين لهم بطلان حذرهم منه .

وعداوته إياهم مخالفته لهم فى دينهم وحملهم على الحق ، وحزنهم بزوال ملكهم على يديه بالفرق بعد أن يُظْهِرَ فيهم الآيات ولا يستجيبوا لدعوته ، فتحل بهم القوارع كما هى سنة الله فى خلقه المكذبين .

ثم بين أن القتل الذى يفعله فرعون وهامان وجنوده لبنى إسرائيل حق وطيش فقال :

(إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى إن هؤلاء كان من دأبهم الخطأ وعدم حسن التصرف فى العواقب ، ومن ثم قتلوا لأجله ألوفا ، ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون .

ثم حكى سبحانه قول امرأة فرعون حين رآه فرعون وهمّ بقتله .

(وقالت امرأة فرعون قرّة عين لى ولك لا تقتلوه) أى قالت تخاصم عنه وتحببه إلى فرعون : إنه مما تقرّبه العيون وتفرح لرؤيته القلوب فلا تقتلوه .

ثم ذكرت العلة التى قالت لأجلها ما قالت .

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أى لعلنا نصيب منه خيرا ، لأنى أرى فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة ، كما قال الشاعر :

فى المهد ينطق عن سعادة جَدِه أثر النجابة ساطع البرهان

أو نتخذه ولدا لما فيه من الوسامة وجمال المنظر التى تجعله أهلا لتبنى الملوك له ، وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها .

ثم بين سبحانه أنهم لايدرون خطأهم فيما صنعوا فقال :

(وهم لايشعرون) أى وهم لا شعور لهم بما خبّأه لهم القدر و بما يئول إليه أمرهم

معه من عظائم الأمور التى تؤدى إلى هلاكهم ، وإنما عِلْم ذلك لدى علام الغيوب فهو الذى يدرى ما أراد بالتقاطهم إياه من الحكم البالغة ، والحجج القاطعة .

و بعد أن أخبر سبحانه عن حال من لقيه موسى عليه السلام خبّر عن حال من فارقه بقوله :

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) أى إنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها شعاعا ، لما دهمها من الجزع والحزن وتوقع الهلاك الذى لا مندوحة منه جريا على عادته مع أنداده ولداته ، ولولا أن عصمناها وثبتنا قلبها لأعلنت أمرها وأظهرت أنه ابنها وقالت من شدة الوجد (وا ولداه) وقد فعلنا ذلك لتكون من المصدّقين بوعدنا : « إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » .

ثم أخبر عن فعلها فى تعرف خبره بعد أن أخبر عن كتمها إياه بقوله :

(وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون) أى وقالت لابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها : تتبعى أثره ، وتشممى خبره ، فأبصرته عن بعد وهم لايشعرون أنها تقصه وتتعرف حاله وأنها أخته .

ثم شرع سبحانه يذكر أسباب رده إليها فقال :

(وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) أى ومنعنا موسى المراضع من أول أمره ، فقالت أخته حين رأت اهتمامهم برضاعه : أتحبون أن أرشدكم إلى أهل بيت يأخذونه ويتولون تربيته ويقومون بجميع شئونه ولا يقصرون فى خدمته والعناية بأمره .

روى عن ابن عباس أنها لما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها : ما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت هم يفعلون ذلك رغبة منهم فى سرور الملك ورجاء عطائه ، وبذا خلصت من أذاهم وذهبوا معها إلى منزلهم ودخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك

فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها العطاء الجزيل ، ثم سألتها أن تقيم عندها وترضعه فأبت ذلك عليها وقالت إن لى بعلا وأولادا ولاأستطيع المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها إلى ما طلبت ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكسا وجزيل العطاء ورجعت بولدها إلى بيتها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا وهى موفورة العز والجاه والرزق الواسع ، وقد جاء فى الأثر « مثل الذى يعمل الخير و يحتسب كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » .

و إلى هذا أشار سبحانه بقوله :

(فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن) أى فرددناه إلى أمه بعد أن التقطه آل فرعون ، لتقر عينها بابنها إذا رجع إليها سليما ، ولا تحزن على فراقه إياها .

(ولتعلم أن وعد الله حق) أى ولتعلم أنّ وعد الله الذى وعدها حين قال لها : (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) حق لامرية فيه ولا خلف وقد شاهدت بعضه ، وقاست الباقى عليه .

و برده إليها تحققت أنه سيكون رسولا ، فربّته على ما ينبغى لمثله من كامل الأخلاق وفاضل الآداب .

(ولكن أكثرهم لايعلمون) حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة فى الدنيا والآخرة ، إذ قد يكون الشىء بغيضا إلى النفوس ظاهرا محمود العاقبة آخرا كما قال : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

وقد حدث هذا فى أمر موسى ، فقد ألقى فى اليم ثم رد إلى أمه مكرّما ثم كان له من الوجاهة فى الدنيا والآخرة ما كان .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) .

شرح المفردات

واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة ، والشدة : القوة والجلادة ، وبلوغ الأشد : استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتدّ به ، والاستواء : اعتدال العقل وكماله ، ويختلف ذلك باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال ، والحكم : الحكمة ، والمدينة : هى مصر ، على حين غفلة : أى فى وقت لايتوقعون دخولها فيه ، من شيعته : أى ممن شايعه وتابعه فى الدين وهم بنو إسرائيل ، من عدوه : أى من مخالفيه فى الدين وهم القبط ، فاستغاثه : أى طلب غوثه ونصره ، فوكزه : أى ضربه بجُمْع يده ، أى بيده مجموعة الأصابع ، فقضى عليه أى فقتله وأنهى حياته ، من عمل الشيطان : أى من تزيينه ، مبين : أى ظاهر العداوة والإضلال ، فاغفر لى : أى فاستر ذنوبى ، بما أنعمت علىّ : أى أقسم بنعمك علىّ ، ظهيرا : أى معينا ، يترقب : أى ينتظر ما يناله من أذى ، استنصره : أى طلب نصره ومعونته ، يستصرخه : أى يطلب

الاستغاثة برفع الصوت ، غويٌّ : أى ضال ، يبطش : أى يأخذ بصولة وسطوة ، والجبار: هو الذى يفعل ما يفعل دون نظر فى العواقب ، من المصلحين : أى ممن يبغون الإصلاح بين الناس و يدفعون التخاصم بالحسنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت و إلقائه فى النيل و إنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل ـ أردفه بذكر ما أنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ، ثم بذكر ما حصل منه من قتل المصرى الذى اختصم مع اليهودى بوكزه بجُمْع يده وكان ذلك سببا فى موته ، ثم طلبه المغفرة من ربه على ما فعل ، ثم تصميمه وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ، ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثته أيضا ، فقال له المصرى أأنت تريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين ؟.

الإيضاح

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين) أى ولما قوى جسمه واعتدل عقله آتيناه فقها فى الدين وعلما بالشريعة كما قال تعالى: «وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ » وكما جزينا موسى على طاعته إيانا و إحسانه بصبره على أمرنا ـ نجزى كل من أحسن من عبادنا وأطاع أمرنا وانتهى عما نهيناه عنه .

و بعد أن أخبر بتهيئته للنبوة ذكر ما كان السبب فى هجرته إلى مدين وتوالى الأحداث الجسام عليه فقال :

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها) أى ودخل مصر آتيا من عين شمس فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة .

روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ، لأنه كان قد خالفهم فى دينهم وعاب ما كانوا عليه .

ثم أبان ما حدث منه حينئذ فقال :

(فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان) أى فوجد فى مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباخ فرعون وكان قد طلب منه أن يحمل حطبا للمطبخ فأبى ، فطلب الإسرائيلى من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى ، فضربه موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال :

(إنه عدو مضل مبين) أى إنه عدو فينبغى الحذر منه ، مضل لايقود إلى خير بيّن العداوة والإضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها بقوله :

(قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) أى قال رب إنى ظلمت نفسى بقتل نفس لايحل قتلها ، فاغفر لى ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت ، قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر اهـ ثم لم يزل صلى الله عليه وسلم يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له ، حتى إنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه : إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها ، وإنما عده ذنبا وقال : (إنى ظلمت نفسى فاغفر لى) من أجل أنه لاينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

روى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق : ما أسألكم ، وأركبكم للكبيرة . سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الفتنة تجيء من ها هنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلع قرنا الشيطان ، وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض ، وإنما قتل موسى الذى قتل من

آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل : « وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا » .

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال :

(فغفر له) أى فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه .

و بعدئذ ذكر ما هو كالعلة لما قبله فقال :

(إنه هو الغفور الرحيم) أى إنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه ، المتفضل عليه بالعفو عنها ، الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ، ورجع عن حوبته .

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

(قال رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين) أى قال رب اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ بعفوك عن قتل هذه النفس لأمتنعن عن مثل هذا الفعل ، ولن أكون معينا للمشركين فأصحبهم وأكثر سوادهم ، وقد كان عليه السلام يصحب فرعون و يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون .

وقد يكون المراد لأمتنعن عن مظاهرة من تئول مظاهرته إلى الجُرْم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به .

ونحو الآية قوله : « وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

(فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين) أى فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفا من جنايته التى جناها بقتله النفس التى قتلها ، وصار يتحسس الأخبار و يسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وما هم بالغوه به ؟ وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به ، وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى

يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى إنك لذو غواية وضلال لاشك فيه ، وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ، ثم دنا منهما .

(فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوهما بالشدة والعنف قال له منكرا : أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت ؟ وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

(إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) أى وما تريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب ، ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ

نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) .

شرح المفردات

أقصى المدينة : أى أبعدها مكانا ، يسعى : أى يسرع ، الملأ : أشراف الدولة ووجوهها ، يأتمرون بك : أى يتشاورون فى أمرك قال الأزهرى ائتمر القوم وتآمروا إذا أمر بعضهم بعضا كما قال : « وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ » وقال النمر بن تَوْلب :

أرى الناس قد أحدثوا شيمة وفى كل حادثة يُؤْتَمَرْ

يترقب : أى يلتفت يَمْنَة وَيَسْرة ، توجه إلى الشىء : صرف وجهه إليه ، تلقاء مدين : أى جهتها ، ورد : أى وصل ، والمراد بماء مدين : البئر التى كانوا يستقون منها ، أمة : أى جماعة ، تذودان : أى تطردان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء ، قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدرى بأىّ عصًا تذودُ

ما خطبكما : أى ما شأنكما ولم لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤبة : يا عَجَبًا ماخَطْبُهُ وخَطْبِي ؟ يصدر الرعاء : أى يصرفون مواشيهم عن الماء ، والرعاء : واحدهم راع ، تولى : أى انصرف ، والظل : ظل شجرة كانت هناك ، والخير يكون بمعنى الطعام كما فى الآية وبمعنى المال كما قال : « إِنْ تَرَكَ خَيْرًا » وبمعنى القوة كما قال : « أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ

تُبَّعٍ » و بمعنى العبادة كقوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ » فقير : أى محتاج والاستحياء : شدة الحياء ، ليجزيك : أى ليثيبك ، والقصص : الحديث المقصوص أى المخبر به ، أنكحك : أزوجك ، ويقال أجرته : أى كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا ، والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة ، قال زهير ابن أبى سلمى :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج ومن دهر

أشق عليك : أى أدخل عليك مشقة ، الأجلين : أى الأطول والأقرب ، فلا عدوان : أى فلا حرج ، وكيل : أى شهيد .

المعنى الجملى

اعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون و بطانته إليه ، فأتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله ، وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه ، فأسرع إليه يخبره الخبر و ينصحه بالهرب ، فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات ، إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

الإيضاح

(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) أى جاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم ، يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : يا موسى : إن الملك و بطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد ، و ينصبون لك الحبائل ، يريدون أن يقتلوك ، فالبدارَ البدارَ والهربَ

الهربَ قبل أن يقبضوا عليك و يُنفِذوا ما دبروه و يقتلوك ، فاخرج من المدينة مسرعا و إنى لك لناصح أمين .

فانتصح بنصحه وتقبل قوله .

(فخرج منها خائفا يترقب) أى فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين و يتلفت يمينا و يسارا و ينظر أيتبعه أحد ؟ .

ثم لجأ إلى الله تعالى علما منه أن لاملجأ إلا إليه .

(قال رب نجنى من القوم الظالمين) أى قال : رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها ، فيقتلون من لايستحق القتل ومن لايُجْرم إلى أحد ، فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين ، روى أن فرعون لما بعث فى طلبه قال : (اركبوا ثَنِيّات الطريق) فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا ففاتهم ونجا من بغيهم .

ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

(ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون ، قال : رب اهدنى إلى سواء السبيل ، وأرشدنى إلى الطريق القويم ، ونجنى من هؤلاء الظلمة ؛ وقد قال هذا توكلا على الله وثقة بحسن توفيقه، وقد كان لايعرف الطريق ، فعنّ له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرَيْن ، وقالوا : المُرِيب لايسلك أعظم الطرق، بل يأخذ بُنَيَّاتها (أضيقها غير المشهور منها) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف لايطعَم إلا ورق الشجر ، إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها .

ثم ذكر سبحانه ما جرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يردُه رِعاء الشاء فوجد جماعة منهم

يسقون نعمهم ومواشيهم ، ووجد فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها، فلما رآهما موسى كذلك رق لهما ورحمهما، قال ما خبركما لم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجابتاه ، قالتا : لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى ، وأبونا شيخ كبير لايستطيع السقى بنفسه ، فنحن نلجأ إلى ماترى ، تشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر ما قبله بعد أن سمع هذا القصص

(فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير) أى فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلا : إنى لمحتاج إلى شىء تنزله إلىّ من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال : لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه ، ولقد افتقر إلى شق تمرة ، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع .

فجاءه الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه .

(فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أى فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان ، وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا ، قال عمرو بن ميمون : ولم تكن سَلْفعا من النساء (جريئة على الرجال) خَرَّاجَة ولَّاجَةً .

وقد أسندت الدعوة إلى أبيها وعللتها بالجزاء حتى لايتوهم من كلامها شىء من الريبة ، كما أن فى كلامها دلالة على كمال العقل والحياء والعفة كما لايخفى .

وقد اختلف فى الأب من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام وهو بعيد كل البعد ، لأن شعيبا كان قبل موسى بزمن طويل بدليل قوله تعالى لقومه : « وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » وقد كان هلاك قوم لوط فى عصر الخليل عليه السلام كما نص

على ذلك الكتاب الكريم ، وكان بين إبراهيم وموسى ما يزيد على أربعمائة سنة ، وفى كتب اليهود أن اسمه يثرو ؛ وفى التوراة فى الفصل الثانى من السفر الثانى مانصه :

ولما سمع بهذا الخبر (خبر قتل القبطى) طلب أن يقتل موسى فهرب من بين يديه وذهب إلى مدين وجلس على بئر ماء ، وكان لكاهن مدين سبع بنات فجاءت وأدلت الدلاء وملأت الأحواض لسقى غنم أبيهن ، فلما جاء الرعاة طردوهن ، فقام موسى فأغاثهن وسقى غنمهن ، فلما جئن إلى رعوائيل أبيهن قال : ما بالكن أسرعتن المجىء اليوم ؟ الخ .

وفى الفصل الثالث : وكان موسى يرعى غنم يثرو حميه كاهن مدين .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر .

(فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى فلما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه حديثه مع فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم و إذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهر به منهم بعد الذى علمه ـ قال له : لا تخف من حولهم وطَوْلهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لا سلطان لهم علينا ، ولسنا فى دائرة ملكهم .

ولما أمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

(قالت إحداهما يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين) أى قالت واحدة من بناته : استأجر موسى ليرعى عليك ما شيتك ، فإن خير من تستأجره للرعى القوىُّ على حفظ الماشية والقيام عليها فى إصلاحها وصلاحها ، الأمينُ : الذى لا تخاف خيانته فيما تأتمنه عليه منها .

ولا يخفى أن مقالها من جوامع الكلم والحكمة البالغة ، لأنه متى اجتمعت هاتان الصفتان : الأمانة والكفاية فى القائم بأداء أمر من الأمور تكمل عمله بالظفر وكفل له أسباب النجح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : أفرس الناس ثلاثة : بنت شعيب ، وصاحب يوسف فى قوله : « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا » وأبو بكر فى عمر .

ولما أعلمت البنت الشيخ بذلك :

(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) أى قال أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتىّ الحاضرتين أمامك ، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما ، على أن تكون أجيرا لى ثمانى سنوات ترعى لى فيها غنمى فإن أتممت الثمانى السنين التى شرطتها عليك فجعلتها عشرا فإحسان من عندك ، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك ، وإنك ستجدنى إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا .

وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولىّ المرأة لها على الرجل ، فقد عرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عمر «لما تأيمت حفصة قال عمر لعثمان : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر» ، الحديث أخرجه البخارى .

فأجابه موسى :

(قال ذلك بينى وبينك) أى قال ما شرطت علىّ فلك ، وما شرطت من تزوج إحداهما فلى والأمر على ذلك لايخرج كلانا عنه ، لا أنا عما شرطت علىّ ولا أنت عما شرطت على نفسك .

ثم فسر هذا بقوله :

(أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على) أى أىّ المدتين قضيت ، الثمانى الحجج أو العشر وفرغت منها فوفيتكها برعى غنمك وماشيتك فليس لك أن تطالبنى بأكثر منها .

روى «أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل: أى الأجلين قضى موسى قال: أوفاهما وأبرهما» رواه الخطيب فى تاريخه.

ثم جعل الله شهيدا على صدق ما يقول كل منهما فقال:

(والله على ما نقول وكيل) أى والله شهيد على ما أوجب كل منهما على نفسه لصاحبه.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢).

شرح المفردات

قضى الأجل: أى أتم المدة المضروبة بينهما، آنس: أى أبصر إبصارا بينا لاشبهة فيه، جذوة: أى عود غليظ فى رأسه نار، تصطلون: أى تستدفئون، والبقعة: القطعة من الأرض على غير هيئة التى بجانبها، والجان: الحية الصغيرة التى توجد فى كثير من الدور ولا تؤذى، ولم يعقب: أى ولم يرجع، اسلك يدك: أى

أدخلها ، والجيب : الفتحة فى القميص ونحوه من حيث يُخرَج الرأس ، سوء : أى عيب ، والرهب : المخافة .

المعنى الجملى

بعد أن قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما عزم على الرحيل إلى مصر لزيارة أهله وذوى قرابته ، ومما جرأه على ذلك طول مدة الجناية وظنه أنه قد نسى أمره وكأنه أصبح فى خبر كان .

الإيضاح

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) أى فلما وفى موسى صاحبه الأجل الذى اتفق عليه مع حميه تحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره وسلك بهم الطريق فى ليلة مَطِرة وظلمة باردة ونزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لايضىء شيئا ، فعجب لذلك ، و بينا هو كذلك رأى نارا تضىء عن بعد فقال لأهله انتظروا قليلا، إنى أبصرت نارا لعلى آتيكم منها بخبر الطريق وكانوا قد ضلوا عنه ، أو آتيكم بقطعة من الحطب فيها نار لتستدفئوا بها من البرد وكان الوقت شتاء .

(فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين) أى فلما جاء إلى النار التى أبصرها من جانب الطور ناداه ربُّه من جانب الوادى الأيمن : أى عن يمين موسى فى البقعة المباركة من ناحية الشجرة : يا موسى إنى أنا الله ربك ورب العالمين جميعا .

وقد خلق الله فيه علما يقينيا بأن المتكلم هو الله تعالى ، وأن ذلك الكلام كلامه ، وقد جعلت الشجرة مباركة ، لأنه تعالى كلم موسى هناك و بعثه نبيا .

ثم أمره الله أن يلقى عصاه لديه آية بقوله :

(وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبرا ولم يعقب) أى ونودى بأن ألق عصاك فألقاها فصارت حية تسعى ، فلما رآها تتحرك وتضطرب كأنها جان من الحيات ، لسرعة عدوها وخفة حركتها ـ ولّى هاربا منها ولم يرجع .

ثم نودى بما يهدئ روعه :

(يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) أى يا موسى أقبل إلىّ ولا تخف مما تهرب منه ، فإنك آمن من أن ينالك سوء ، إنما هى عصاك أردنا أن نريك فيها آية كبرى ، لتكون عونك لدى الطاغية الجبار فرعون ملك مصر .

ثم أراه آية أخرى زيادة فى طمأنينته وأمره بقوله :

(اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أى أدخل يدك فى جيب قميصك تخرج ولها شعاع يضىء من غير عيب ولا برص .

ولما اعترى موسى الخوف من العصا تارة، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى ، أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال :

(واضمم إليك جناحك من الرهب) أى وضع يدك على صدرك يذهب مابك من خوف ، كما يشاهد من حال الطائر ، إذا خاف نشر جناحيه ، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه ، وكان موسى يرتعد خوفا إما من آل فرعون وإما من الثعبان .

قال ابن عباس : كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم بقوله :

(فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه) أى فما تقدم من جعل العصا حية تسعى وخروج اليد بيضاء من غير سوء بعد وضع اليد فى الجيب ـ دليلان واضحان على قدرة ربك وصحة نبوة من جريا على يديه ، أرسلناهما إلى فرعون وقومه.

ثم ذكر العلة فى إظهار الآيات لهم بقوله :

(إنهم كانوا قوما فاسقين) أى إنهم قوم خارجون عن طاعة الله ، مخالفون

لأمره ، منكرون لكل دين جاء به الرسل ، فكانوا جديرين بأن نرسلك إليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين .

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

الردء : العون ، يقال ردأته على عدوه : أى أعنته عليه ، قال الشاعر :

ألم تر أن أصرمَ كان ردْئى وخيرَ الناس فى قُلٍّ ومال

يصدقنى : أى يوضح ما قلته ويقيم عليه الأدلة ويجادل المشركين ، والعضد : ما بين المرفق إلى الكتف ، والمراد بشد العضد : التقوية والإعانة . قال طَرَفة :

بنى لُبَيْنَى لستُمُ بيد إلا يدًا ليست لها عَضُدُ

والسلطان : التسلط والغلبة ، مفترى : أى مختلق ، عاقبة الدار : أى العاقبة المحمودة فى الدار الدنيا التى تفضى إلى الجنة .

المعنى الجملى

اعلم أنه لما قال سبحانه لموسى فذانك برهانان من ربك علم أنه سيذهب بهذين البرهانين إلى فرعون وقومه ـ حينئذ طلب منه أن يؤتيه ما يقوّى به قلبه ويزيل

خوفه من فرعون ، لأنه إنما خرج من ديار مصر فرارا منه وهربا من سطوته ، فيرسل معه أخاه هارون وزيرا فأجابه إلى ما طلب ، وأرسله هو وهرون إلى فرعون وملئه ومعهما المعجزات الباهرة ، والأدلة الساطعة ، فلما عاينوا ذلك وأيقنوا صدقه لجئوا إلى العناد والمكابرة فقالوا ما هذا إلا سحر مفتعل ، وما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ، فقال لهم موسى : ربى أعلم بالمهتدى منا ومنكم وسيفصل بينى و بينكم ويجعل النصر والتأييد للصالحين من عباده .

الإيضاح

(قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون. وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) أى قال يارب إنى قتلت من قوم فرعون نفسا فأخاف إن أتيتهم ولم أُبِنْ عن نفسى بحجة أن يقتلونى ، لأن ما فى لسانى من عقدة يحول بينى و بين ما أريد من الكلام ، وأخى هرون هو أفصح منى لسانا وأحسن بيانا ، فأرسله معى عونا يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، و يجيب عن الشبهات ، و يجادل هؤلاء الجاحدين المعاندين ، و إنى أخاف أن يكذبونى ولسانى لا يطاوعنى حين المحاجة .

فأجابه سبحانه إلى ما طلب .

(قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما) أى سنقويك ونعينك بأخيك ونجعل لكما تسلطا عظيما وغلبة على عدوكما ، فلا يصلون إليكما بوسيلة من وسائل الغلَب .

(بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون) أى أنتما ومن تبعكما الغالبون بحججنا وسلطاننا الذى نجعله لكما .

وفى هـذا دليل على أن فرعون لم يصل إلى السحرة بشىء مما هددهم به لأنهم من أكبر الأتباع الباذلين أنفسهم فى سبيل الله .

ثم أبان ما صدر من فرعون عقب مجيء موسى إليه فقال :

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين) أى فحين جاء موسى بالحجج البالغة الدالة على صدق رسالته ـ فرعون وملأه، قالوا ماهذا إلا سحر افتريته من عندك وانتحلته كذبا وبهتانا ، وما سمعنا بهذا الذى تدعونا إليه من عبادة إله واحد فى أسلافنا وآبائنا الذين مضوا من قبلنا .

وهذا تحكيم لعادة التقليد التى أضلت كثيرا من الناس ، على أنهم قد كذبوا وافتروا فإنهم سمعوا بذلك فى عهد يوسف عليه السلام (وما بالعهد من قِدَم) فقد قال لهم الذى آمن : « يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ـ إلى أن قال ـ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ » .

ولما كذبوه كفرا وعنادا وهم الكاذبون رد عليهم بما أشار إليه بقوله :

(وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) أى وقال موسى مجيبا فرعون وملأه : ربى أعلم بالحق منا يا فرعون من المبطل ، ومن الذى جاء بالحق الذى يوصل إلى سبيل الرشاد ، ومن الذى له العقبى المحمودة فى الدار الآخرة ؟ .

وفى هذا الأسلوب من أدب الخطاب فى الحجاج والمناظرة ما لايخفى ، فهو لم يؤكد أن خصمه فى ضلال كما لم ينسبه إلى نفسه بل ردده بينهما وهو يعلم أنه لأيهما ، وعلى هذا النحو جاء الخطاب من النبى صلى الله عليه وسلم للمشركين بقوله : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

ثم علل هذا بأن سنة الله قد جرت بأن المخذول هو الكاذب فقال :

(إنه لايفلح الظالمون) أى إنه لاينجح الكافرون ولا يدركون طلبتهم ، وفى هذا إيماء إلى أنهم لايظفرون بالفوز والنجاة ، بل يحصلون على ضد ذلك ، وهذا غاية الزجر والتهديد لكفهم عن العناد .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحًا لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) .

شرح المفردات

هامان : وزير فرعون ، صرحا : أى قصرا عاليا ، أطلع : أى أصعد وأرتقى ، فنبذناهم : أى طرحناهم ، أئمة : واحدهم إمام، وهومن يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا، يدعون إلى النار : أى إلى ما يوجبها من الكفر والمعاصى ، لعنة : أى طردا من الرحمة ، من المقبوحين : أى المخزيين ، يقال قبحه الله : أى نحاه من كل خير ، وقبحت وجهه وقبّحت بمعنى ، قال الشاعر :

ألا قبحَ الله البراجم كلها وقبّح يَرْبوعا وقبّح دَارِمَا

الكتاب : هو التوراة ، القرون الأولى : هم قوم نوح وهود وصالح ، بصائر : واحدها بصيرة ، وهى نور القلب للتمييز بين الحق والباطل .

المعنى الجملى

بعد أن رغب موسى فرعون وقومه فى التوحيد والنظر فى الكون تارة ورهبهم من عذاب الله وشديد نكاله تارة أخرى ـ أجابه فرعون بتلك المقالة التى تدل على الجهل المطبق ونقصان العقل ، وأنه بلغ غاية لاحد لها فى الإنكار وأنه لامطمع فى إيمانه ، لعتوّه وطغيانه واستكباره فى الأرض حتى قال ما قال ، ومن ثم كانت عاقبته فى الدنيا الهلاك بالغرق هو وجنوده واللعن من الله والناس، وفى الآخرة الطرد من رحمة الله .

ثم أخبر سبحانه أنه آتى موسى التوراة وجعلها نورا للناس يهتدون بها وتكون لهم تذكرة من عقاب الله وشديد عذابه .

الإيضاح

(وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) أى قال يأيها القوم ما علمت لكم فى أى زمن إلها غيرى كما يدعى موسى ، والأمر محتمل أن يكون وسأحقق ذلك لكم ، وهذا كلام ظاهره الإنصاف ليتوصل بذلك إلى قبولهم ما يقول لهم بعد ذلك فى شأن الإله وتسليمهم إياه ، اعتمادا على ما رأوا من عظيم نَصَفَته فى القول .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان قالهما فرعون (ما علمت لكم من إله غيرى) وقوله : «أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى» كان بينهما أربعون عاما ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

وخلاصة مقاله — لاعلم لى برب غيرى فتعبدوه وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله ربا غيرى ومعبودا سواى .

ونحو الآية قوله : « فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » وقوله : « لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ».

قال الرازى : ليس مراده من ادعاء الألوهية أنه خالق السموات والأرض والبحار والجبال وخالق الناس ، فإن العلم بامتناع ذلك واضح لكل ذى عقل ، بل مراده بذلك وجوب عبادته ، فهو ينفى وجود الإله و يقول : لاتكليف على الناس إلا أن يطيعوا مليكهم و ينقادوا لأمره اه بتصرف .

ثم خاطب وزيره آمرا له على سبيل التهكم أمام موسى ، ليشكك قومه فى صدق مقالته .

(فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى) أى فاصنع لى آجرًّا واجعل لى منه قصرا شامخا و بناء عاليا أصعد وأرتقى إلى إله موسى الذى يعبده فى السماء ، ويدعى أنه يؤيده و ينصره وهو الذى أرسله إلينا .

و بمعنى الآية قوله: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلٰهِ مُوسَى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا » .

ثم زاد قومَه شكا فى صدقه بقوله :

(و إنى لأظنه من الكاذبين) أى و إنى لأظنه كاذبا فيما يدعى من أن له معبودا فى السماء ينصره و يؤيده وأنه هو الذى أرسله .

ثم ذكر سبحانه ما هو كالسبب فى العناد والجحود فقال :

(واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لايرجعون) أى ورأى هو وجنوده كل من سواهم فى أرض مصر حقيرا ، عتوًّا منهم على ربهم ، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لايبعثون ولا يثابون ولا يعاقبون ، ومن ثم ركبوا أهواءهم ولم يعلموا أن الله لهم بالمرصاد ، وأنه مجازيهم على خبيث أعمالهم وسيئ أقوالهم .

ثم أخبر بما نالهم من عقاب الدنيا بعد أن توعدهم بعقاب الآخرة فقال :

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ) أى فجمعنا فرعون وجنوده من القبط فألقيناهم جميعا فى البحر .

وفى هذا ما لايخفى من الدلالة على عظم شأن الخالق وكبريائه وسلطانه وشديد احتقاره لفرعون وقومه واستقلاله لهم وإن كانوا عددا كبيرا وجما غفيرا ، فما مثلهم إلا مثل حصيات صغار قذفها الرامى من يده فى البحر .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وقومه بالنظر والاعتبار والتأمل فى العواقب ليعلموا أن هذه سنة الله فى كل مكذب برسله فقال :

(فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر أيها المعتبر بالآيات ، كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وكفروا بربهم وردوا على رسوله نصيحته — ألم نهلكهم ونورّث ديارهم وأموالهم أولياءنا ونخوّلهم ما كان لهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كبير بعد أن كانوا مستضعفين، تُقتّل أبناؤهم وتستحيا نساؤهم ، وإنّا بك وبمن آمن بك فاعلون ، فمخولوك وإياهم ديار من كذبك وردّ عليك ما أتيتهم به من الحق ، وأموالهم بعد أن تستأصلوهم قتلا بالسيف — سنة الله فى الذين خلوا من قبل .

ثم ذكر ما يوجب سوء عاقبتهم وعذابهم فى النار فقال :

(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار) أى وجعلنا فرعون وقومه أئمة يقتدى بهم أهل العتو والكفر بالله ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصى ، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التى تلقى بفاعلها فى النار .

وما كفاهم أن يكونوا ضالين كافرين بالله ورسوله ، بل دأبوا على إضلال سواهم وتحسين العصيان لهم ، وبذا قد ارتكبوا جريمتين ، فباءوا بجزاءين : جزاء الضلال وجزاء الإضلال ، وقد جاء فى الحديث : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم ذكر أنه لانصير ولا شفيع فى ذلك اليوم فقال :

(ويوم القيامة لاينصرون) أى ويوم القيامة لايجدون نصيرا يدفع عنهم عذاب

الله إذا حاق بهم ، وقد كانوا فى الدنيا يتناصرون ، فكان لهم مطمع فى النصرة يومئذ على حسب ما يعرفون .

ثم ذكر ما هو كالفذلكة لما تقدم و بين سوء حالهم فى الدارين فقال :

(وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة هم من المقبوحين) أى وألزمنا فرعون وقومه فى هذه الدنيا خزيا وغضبا منا عليهم ومن ثم قضينا عليهم بالهلاك والبوار وسوء الأحدوثة ، ونحن مُتْبِعُوهم لعنة أخرى يوم القيامة ، فمخزوهم الخزى الدائم ومهينوهم الهوان اللازم الذى لافكاك عنه .

ثم بين سبحانه الحاجة التى دعت إلى إرسال موسى ليكون كالتوطئة لبيان الحاجة الداعية إلى إنزال القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :

(ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفصلنا فيها الأحكام التى فيها سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم من بعد ما أهلكنا الأمم التى من قبلهم كقوم نوح وهود وصالح ، ودرست معالم الشرائع وطمست آثارها واختلّ نظم العالم وفشا بينهم الشر ورفع الخير . فاحتاج الناس إلى تشريع جديد يصلح ما فسد من عقائدهم وأفعالهم ، بتقرير أصول فى ذلك التشريع تبقى على وجه الدهر، وترتيب فروع تتبدل بتبدل العصور واختلاف أحوال الناس ، وفيها التذكير بأحوال الأمم الخالية ليكون فى ذلك عبرة للناس ، ونور لقلوبهم ، تبصر به الحقائق وتميز بين الحق والباطل ، بعد أن كانوا فى عماية عن الفهم والإدراك ، وتهديدهم إلى ما يوصلهم إلى القرب من ربهم ونيل رضوانه ومغفرته ورحمته ، ليتذكروا نعم الله عليهم فيشكروه عليها ولا يكفروا بها .

قال أبو سعيد الخدْرى : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء ولا من الأرض منذ أنزل الله التوراة

على موسى غير القرية التى مسخت قردة ، ألم تر إلى قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى » .

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

شرح المفردات

الغربى : هو الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى ، قضينا : أى عهدنا إليه وكلفناه أمرنا ونهينا ، الأمر : أى أمر الرسالة ، الشاهدين : أى الحاضرين ، فتطاول عليهم العمر : أى بعُد الأمد ، ونحوه : « فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » ثاويا : أى مقيما . قال العجّاج :

* فبات حيث يدخل الثّويُّ * أى الضيف المقيم ، أهل مدين : أى قوم شعيب عليه السلام ، مصيبة : أى عذاب الدنيا والآخرة ، ولولا الثانية بمعنى هلا وتفيد تمنى حصول مابعدها والحث عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أنه أرسل موسى بعد أن أهلك القرون الأولى ودرست الشرائع واحتيج إلى نبى يرشد الناس إلى ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم

أردف ذلك ببيان الحاجة إلى إرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لمثل تلك الدواعى التى دعت إلى إرسال موسى عليه السلام ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولأن رحمته اقتضت ألا يعذب أحدا إلا إذا أرسل رسولا ، ويتضمن ذلك كون القرآن وحيا من عند الله ، لأن ما فصل فيه من الأحوال لايتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها ، وقد انتفى كلاهما فتبين أنه بوحى من علام الغيوب .

الإيضاح

(وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين) أى وما كنت حاضرا بجانب الجبل الغربى الذى وقع فيه الميقات وأعطى الله فيه ألواح التوراة لموسى حين عهدنا إليه أمر النبوة ، وما كنت من جملة السبعين الذين اختيروا لسماع تفاصيل ذلك الأمر الذى أوحينا به إلى موسى حتى تخبر به كله على الوجه الذى أتيناك به فى هذه الأساليب المعجزة .

وخلاصة ذلك — إن إخبارك بالغيوب الماضية التى لم تشهدها وقد قصصتها كأنك سامع راء لها وأنت أمى لاتقرأ ولا تكتب ، وقد نشأت بين قوم أميين لايعرفون شيئا من ذلك ـ لهو من أعظم البراهين على نبوتك ، وإن إخبارك بذلك إنما هو بوحى من الله كما قال : « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » .

(ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر) أى ولكنا أنشأنا من عهد موسى إلى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر إلى أن وجد القرن الذى أنت فيه فدرست العلوم فوجب إرسالك إليهم ، فأرسلناك وعرفناك أحوال الأنبياء وأحوال موسى وأرسلناك بما فيه سعادة البشر .

والخلاصة — إنك ما كنت شاهدا موسى وما جرى له ولكنا أوحيناه إليك، وفى هذا تنبيه إلى المعجزة كأنه قال : إن فى إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله ـ لدلالة ظاهرة على نبوتك .

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

(١) (وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا) أى وما كنت مقيما بين أهل مدين تتلقف القصة ممن شاهدها ، وتقرؤها عليهم بطريق التعلم منهم كما يقرأ المتعلم على معلمه ، فتفهمهم أخبار موسى بهذا الطريق ونحوه .

(ولكنا كنا مرسلين) لك موحين إليك تلك الآيات ونظائرها ، ولولا ذلك ما علمتها وما أخبرتهم بها .

(٢) (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) أى وما كنت بجانب الطور ليلة المناجاة وتكليم الله موسى حتى تحدث أخبارها وتفصل أحوالها حديث الخبير العليم ببواطن أمورها وظواهرها .

(ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون) أى ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بتلك الأخبار وبغيرها مما فيه صلاح البشر وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم ، لتنذر قوما لم يأتهم قبلك نذير ، وتحذرهم بأس الله وشديد عقابه على إشراكهم به وعبادتهم الأوثان والأنداد ، لعلهم يرجعون عن غيهم ويتذكرون عظيم خطئهم وكبير جرمهم فينيبوا إلى ربهم ويقروا بوحدانيته ويفردوه بالعبادة دون سواه من الآلهة .

ثم ذكر الحكمة فى إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم ، وأن فى ذلك قطعا لمعذرتهم حتى إذا جاءهم بأسنا لم يجدوا حجة فقال :

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) أى ولولا أن يقول هؤلاء الذين أرسلناك إليهم حين يحل بهم بأسنا ويأتيهم عذابنا على كفرهم بربهم واجتراحهم المعاصى قبل أن نرسلك إليهم : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن يحل بنا سخطك وينزل بنا عذابك ، فنتبع أدلتك وآى كتابك التى تنزلها عليه ونكون من المؤمنين بألوهيتك المصدقين برسولك ـ لعاجلناهم العقوبة على شركهم ، لكنا بعثناك إليهم نذيرا ببأسنا

كما هو سنتنا فى أمثالهم كما جاء فى الآية الكريمة : «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» .

والخلاصة — إنا أزحنا العذر ، وأكملنا البيان فبعثناك أيها الرسول إليهم ، وقد حكمنا بأنا لا نعاقب عبدا إلا بعد إكمال البيان والحجة وبعثة الرسل .

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) .

شرح المفردات

الحق : أى الأمر الحق وهو القرآن ، سحران : أى ما أوتيه موسى وما أوتيه محمد ، تظاهرا : أى تعاونا وتناصرا ، فإن لم يستجيبوا لك : أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به ، والتوصيل : ضم قطع الحبل بعضها إلى بعض قال شاعرهم :

فقل لبنى مروان ما بال ذمتى ... بحبل ضعيفٍ ما يزال يُوَصَّل

والمراد به هنا إنزال القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض .

المعنى الجملى

بعد أن بين فيما سلف أنه إنما أرسل رسوله قطعا لمعذرتهم حتى لا يقولوا حين نزول بأسنا بهم : هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبعه — أردفه ببيان أنه حين مجىء

الرسول و إنزال القرآن عليه جحدوا به و كذبوا رسالته ولم يعتدوا بكتابه وطلبوا مجيء معجزات كمعجزات موسى من مجيء التوراة جملة وقلب العصا و إخراج اليد بيضاء من غير سوء ، وقد كفر المعاندون من قبلهم بما جاء به موسى من المعجزات وقالوا : ما هى إلا سحر مفترى وما هى إلا أساطير الأولين و إن موسى ومحمدا ساحران تعاونا على الخداع والتضليل ، و إنا لكافرون بكل منهما .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إن استطعتم أن تأتوا بكتاب خير من كتابيهما موصل إلى الحق هاد إلى سبيل الرشد فافعلوا ، فإن لم تستطيعوا ذلك فأنتم متبعون للهوى ، سالكون سبيل الضلال ، ولا أضل ممن يسلك هذه السبيل .

ثم ذكر أنه ما أرسل الكتاب منجما على هذا النهج إلا ليكون فيه عبرة وذكرى لهم بين آن وآخر لعلهم يرتدعون عن غيهم و يثوبون إلى رشدهم .

الإيضاح

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) أى فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله ـ بالكتاب الكريم قالوا تمرداً وعناداً وتمادياً فى الغى والضلال : هلا أوتى مثل ما أوتى موسى من المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وتظليل الغمام إلى نحو أولئك .

ثم ذكر أن هذه شنشنة المعاندين فى كل زمان ، لا يريدون بما يقولون إظهار الحق بل يقصدون التمادى والإنكار ، ألا ترى أن من أرسل إليهم موسى قالوا مثل هذه المقالة كما أشار إلى ذلك بقوله :

(أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟) أى إن المعاندين الذين مذهبهم كمذهبكم وهم الكفار الذين كانوا فى زمن موسى كفروا بما جاء به موسى ، فأنتم متبعون نهجهم وسالكون سبيلهم .

ثم بين طريق كفرهم به فقال :

(قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) أى قالوا إن موسى ومحمدا ساحران

تعاونا على الدَّجْل والتضليل وخداع السُّذَّج من الجماهير ، ولم يرسلهما ربهما لهداية البشر كما زعما ، وإنا لكافرون بكل منهما ولا نؤمن بما جاءا به .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدى قومه بأن يأتوا بكتاب أهدى للبشر وأصلح لحالهم فى المعاش والمعاد من التوراة والقرآن فقال :

(قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) أى ائتونى بكتاب من عند الله أصلح لهداية البشر من التوراة والقرآن ، فإن جئتم به فإنى لأتركهما وأتبع ما تجيئون به ، إن كنتم صادقين فيما تقولون ، جادِّين فيما تدّعون .

ثم توعدهم إذا هم نكصوا على أعقابهم ولم يلبوا طلبه ولم يأتوا بالكتاب فقال :

(فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أى فإن لم يفعلوا ما كلفتهم به فاعلم أنهم سادرون فى غُلَوَائهم ، متبعون لأهوائهم ، راكبون لرءوسهم ، حائدون عما يقتضيه الدليل والبرهان .

ثم بين عاقبة من يتبع الهوى فقال :

(ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) أى ومن أضل عن طريق الرشاد وسبيل السداد ممن سار متبعا الهوى بغير بيان من الله وعهد منه بما ينزله على رسله بوحى منه .

وفى هذا من التشنيع عليهم وتقبيح فعلهم ما لا يخفى على كل ذى لب .

ثم بين سنته تعالى فى خلقه فقال :

(إن الله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق واتباع سبيل الرشد ، من خالفوا أمره ، وتركوا طاعته ، وكذبوا رسله ، وبدلوا عهده ، واتبعوا هوى أنفسهم إيثاراً منهم لطاعة الشيطان على طاعة الرحمن .

ولما أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بين الحكمة فى إنزال القرآن منجما فقال :

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) أى ولقد نزلنا عليهم القرآن متواصلا

بعضه إثر بعض على ما تقتضيه الحكمة وترشد إليه المصلحة ، وهى أن يكون أقرب إلى التذكير والتنبيه ، فهم فى كل يوم يطلعون فيه على حكمة جديدة وفائدة زائدة فيكون ذلك أدعى إلى إيمانهم ورسوخه فى نفوسهم وامتلاء قلوبهم نوراً به .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) .

شرح المفردات

مسلمين : أى منقادين خاضعين لله ، يدرءون أى يدفعون ، واللغو : ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وسخف القول ، سلام عليكم : أى سلام لكم مما أنتم فيه ، لا نبتغى الجاهلين أى لا نريد أن نكون من أهل السفه والجهل ، فنجازيكم على باطلكم بباطل مثله .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم من وصف ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جُبَيْر : نزلت هذه الآية فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى

إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما قدموا عليه قرأ عليهم (يسٓ والقرآن الحكيم) حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) أى الذين آمنوا بالتوراة والإنجيل من أهل الكتاب ، ثم أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم آمنوا بالقرآن ، لأنهم قد وجدوا فى كتبهم البشرى به ، وانطباق الأوصاف عليه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ » ، وقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » .

(وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) أى وإذا تلى هذا القرآن عليهم قالوا صدقنا بأنه نزل من عند ربنا حقا ، وقد كنا مصدقين به قبل نزوله ، لأنا وجدنا فى كتبنا نعت محمد ونعت كتابه .

وفى هذا إيماء إلى أن إيمانهم به متقادم العهد ، فآباؤهم الأولون قرءوا فى الكتب الأول ذكره ، وأبناؤهم من بعدهم فعلوا كما فعلوا من قبل نزوله .

ثم بين جزاءهم على إيمانهم به بعد إيمانهم بما سبقه من الكتب بقوله :

(أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) أى هم يؤتون ثواب عملهم مرتين : مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن بسبب صبرهم وثباتهم على الإيمانين ، فإنّ تجشم مثل هذه المشاقّ شديد على النفوس ، فقد يصيبهم من جرّاء ذلك أذى من قومهم أو من المشركين فى اتباعهم محمدا صلى الله عليه وسلم .

ونحو الآية قوله تعالى فى شأنهم « يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ » وفى الحديث الصحيح عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه

ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » وروى أبو أمامة قال : إنى لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسنا جميلا وقال فيما قال : « من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا » .

ثم ذكر من أوصافهم مايؤهلهم للزلفى والقرب من ربهم فقال :

(١) (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى وهم يدفعون ما سمعوا من الأذى والشتم بالصفح والعفو عنه .

(٢) (ومما رزقناهم ينفقون) أى وينفقون مما أعطاهم الله من فضله من المال الحلال النفقات الواجبة لأهلهم وذوى قرباهم ، ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم ، ويساعدون البائسين وذوى الخصاصة المعوزين .

(٣) (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لانبتغى الجاهلين) أى وإذا سمعوا مالا ينفع فى دين ولا دنيا من السب والشتائم وتكذيب الرسول أعرضوا عن قائليه ولم يخالطوهم ، وإذا سفه عليهم سفيه وكلهم بما لاينبغى رده من القول لم يقابلوه بمثله ، إذ لايصدر منهم إلا طيب الكلام وقالوا لنا أعمالنا لاتثابون على شىء منها ولا تعاقبون ، ولكم أعمالكم لانطالب بشىء منها ، فنحن لانشغل أنفسنا بالرد عليكم ، سلام عليكم سلام متاركة وتوديع ، فإنا لانريد طريق الجاهلين.

ونحو الآية قوله تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً » .

روى محمد بن إسحق « أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو يزيدون حين بلغهم خبره ، فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مساءلته عما أرادوا دعاهم إلى الله وتلا عليهم القرآن ، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع ، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيَّبكم الله من ركب ، بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ، ما رأينا ركبا أحمق منكم ، فقالوا لهم : سلام عليكم ، لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا .

إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَىْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير وهى التى أثبتها الله لرسوله فى قوله « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء فى قوله : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا » وهى بهذا المعنى نفيت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية، يجبى إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبى الماء فى الحوض: أى جمعه، والجابية : الحوض العظيم ، والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى آمنوا به وجاءوا إليه زرافات ووُحْدانا من كل فج عميق وجابوا الفيافى وقطعوا البحار للإيمان به ،

بعد أن سمعوا أخباره ، وترامت لهم فضائله وشمائله ، وقد كان فى هـذا مقنع لقومه أن يؤمنوا به وأن تحدثه نفسه الشريفة بالطمع فى إيمانهم، ودخول الهدى فى قلوبهم والانتفاع بما آتاه الله من العرفان ، فتكون لهم به السعادة فى الدنيا والآخرة ـ أردف ذلك بالآية الأولى تسلية له صلى الله عليه وسلم إذ لم ينجع فى قومه الذين يحبهم ويحرص عليهم أشد الحرص ـ إنذاره وإبلاغه ، فيقبلوا ما جاء به ، بل أصروا على ما هم عليه وقالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ، فكانوا على عكس قوم هم أجانب عنه آمنوا بما جاء به وقالوا إنه الحق من ربنا .

وقد استفاضت الأخبار بأن الآية نزلت فى أبى طالب، فقد أخرج عبد بن حميد ومسلم والترمذى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال : « لما حضرت أبا طالب الوفاة أتاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال يا عماه : قل لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله يوم القيامة ، فقال : لولا أن تعيرنى قريش ، يقولون ما حمله على ذلك إلا جزعه من الموت لأقررت بها عينك ، فأنزل الله (إنك لا تهدى من أحببت) » الآية .

ونزل فى الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حين أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب ونحن أكلة رأس (يريد إنا قليلو العدد) أن يتخطفونا ـ قوله تعالى : (وقالوا إن نتبع الهدى) الآية .

الإيضاح

(إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) أى إنك لا تستطيع هدى من أحببت من قومك أو من غيرهم هدى موصلا إلى البغية ، فتدخله فى دينك وإن بذلت كل مجهود ، وإنما عليك البلاغ والله يهدى من يشاء وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

ويعنى الآية قوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، وقوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

(وهو أعلم بالمهتدين) أى وهو أعلم بالمستعدين للهداية فيمنحوها ، ومنهم الذين ذكرت أوصافهم من أهل الكتاب دون من هم من أهل الغواية كقومك وعشيرتك.

ثم أخبر سبحانه عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباعهم للهدى فقال :

(وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أى وقالوا : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى ويحاربونا ويجلونا من ديارنا .

فرد الله عليهم مقالتهم وأبان لهم ضعف شبهتهم فقال :

(أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ؟) أى إن ما اعتذرتم به لا يصلح أن يكون عذرا ، لأنا جعلنا كم فى بلد أمين وحرم معظم منذ وجد ، فكيف يكون هذا الحرم آمنا لكم حال كفركم وشرككم ولا يكون أمنا لكم وقد أسلمتم واتبعتم الحق ؟ قال يحيى بن سلام : يقول : كنتم آمنين فى حرمى ، تأكلون رزقى ، وتعبدون غيرى ، أفتخافون إذا عبدتمونى وآمنتم بى ؟ وقد تفضل عليكم ربكم وأطعم أهله من كل الثمرات التى تجلب من فجاج الأرض والمتاجر والأمتعة من كل بلد ، رزقا منه لكم .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى ولكن أكثرهم جهلة لا يفطنون إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ومن ثم قالوا ما قالوا ، وقد كان من حقهم أن يعلموا أن تلك الأرزاق إنما وصلت إليهم من ربهم ، فهو الذى يخشى ويتقى لا سواه من المخلوقين .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) .

شرح المفردات

بطرت : أى بغت وتجبرت ولم تحفظ حق الله ، وأمها : أكبرها وأعظمها ، وهى قصبتها (عاصمتها) .

المعنى الجملى

هذا هو الرد الثانى على شبهتهم ، فإنه بعد أن بين ماخص به أهل مكة من النعم أتبعه بما أنزله على الأمم الماضية الذين كانوا فى رغد من العيش ، فكذبوا الرسل ، فأزال عنهم تلك النعم ، وأحل بهم النقم .

وإجمال هذا — إن قولكم لانؤمن خوفا من زوال النعم ليس بحق ، بل الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذى يزيل هذه النعم .

ثم بين أن من سنته تعالى ألا يهلك قوما إلا إذا أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

الإيضاح

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى وكثير من القرى أثرى أهلها وسعوا فى الأرض فسادا و بطروا تلك النعم فخرّب الله ديارهم ، وأصبحت مساكنهم خاوية لم يعمر منها إلا أقلها وصار أكثرها خرابا يبابا .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ » (وكنا نحن الوارثين) لهم ، إذ لم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر مايتصرفون فيه ، والشىء إذا لم يبق له مالك معين قيل إنه ميراث الله ، لأنه هو الباقى بعد خلقه .

ونحو الآية قوله : « وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لايهلك أحدا إلا بعد الإنذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال :

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) أى وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق ويدعوهم إليه بالترغيب حينا والترهيب حينا آخر، فيكون ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المعذرة .

وإنما كان البعث فى أم القرى ، لأن فى أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة وأعرف بمواقع الحق ؛ إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم يسكنون المدائن وهى أم ماحولها .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » .

ثم بين أنه لايهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا رسلهم فقال :

(وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) أى ولا نهلك القرى التى نبعث فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسول وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيراً .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) .

شرح المفردات

من المحضرين: أى الذين يُحْضرون للعذاب ، وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال : « لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » وقال : « إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ » لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والإلزام ، ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

المعنى الجملى

هذا هو الرد الثالث على تلك الشبهة ، فإن خلاصة شبهتهم أنهم تركوا الدين لئلا تفوتهم منافع الدنيا ، فرد الله عليهم بأن ذلك خُرْق رأى وخَطَل عظيم ، فإن ماعند الله خير مما فيها لكثرة منافعه وخلوصه من شوائب المضار ، ومنافعها مشوبة ، وهو أبقى مما فيها ، لأنه دائم لاينقطع ، ومنافعها لا بقاء لها ، فمن الجهل الفاضح إذاً ترك منافع الآخرة لاستيفاء منافعها ، ولاسيما إذا قرنت المنافع بعقاب الآخرة .

الإيضاح

(وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى) أى وما أعطيتم أيها الناس من شىء من الأموال والأولاد ، فإنما هو متاع تتمتعون به فى الحياة الدنيا وتتزينون به فيها وهو لايغنى عنكم شيئا عند ربكم ولا يجديكم شَرْوَىٰ نَقِيرٍ لديه ، وما عنده خير لأهل طاعته وولايته لدوامه وبقائه ، بخلاف ما عندكم فإنه ينفد وينقطع بعد أمد قصير .

ونحو الآية قوله «مَاعِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ» وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ » وقوله : « بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى » ، وفى الحديث : « والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر ماذا يرجع إليه ؟ » .

(أفلا تعقلون ؟) أى أفلا عقول لكم أيها القوم تتدبرون بها فتعرفون الخير من الشر ، وتختارون لأنفسكم خير المنزلتين على شرهما ، وتؤثرون الدائم الذى لانفاد له على الفانى الذى ينقطع ، ومن أجل هذا أثر عن الشافعى رحمه الله أنه قال : من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث للمشتغلين بطاعة الله تعالى ـ وكأنه رحمه الله أخذه من هذه الآية .

ثم أكد ترجيح ما عند الله على ما فى الدنيا من زينة بقوله :

(أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ؟) أى أفمن وعدناه من خلقنا على طاعته إيانا بالجنة وجزيل نعيمها مما لاعين رأت ولا خطر على قلب بشر ، فآمن بما وعدناه وأطاعنا فاستحق أن ننجز له وعدنا فهو لاقيه حتما وصائر إليه ، كمن متعناه الحياة الدنيا ونسى العمل بما وعدنا به أهل الطاعة ، وآثر لذة عاجلة على لذة آجلة لاتنفد ، ثم هو يوم القيامة إذا ورد على الله من المحضرين لعذابه ؛ وأليم عقابه ؟ .

وهذه الآية تبين حال كل كافر متع فى الدنيا بالعافية والغنى وله فى الآخرة النار ، وحال كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله وله فى الآخرة الجنة .

وخلاصة ذلك ـ أفمن سمع كتاب الله فصدق به وآمن بما وعده الله فيه ، كمن متعناه متاع الحياة الدنيا وقد كفر بالله وآياته ثم هو يوم القيامة من المحضرين لعذابه ـ الجواب الذى لاثانى له ـ إنهما لايستويان فى نظر العقل الرجيح ؟ ! .

وتلخيص المعنى : إنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا قيل لهم : لو لم يحصل عقب دنيا كم مضرة العقاب لكان العقل يقضى بترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا ، فكيف و بعد هذه اللذة فيها يحصل العقاب الدائم .

وجاء الكلام بأسلوب الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) .

شرح المفردات

حق : أى وجب وثبت، والقول. أى مدلول القول ومقتضاه وهو قوله : «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والغواية : الضلال والفعل غوَى يغوِى كضرب يضرب ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يجيبوا ، عميت : أى خفيت ؛ والأنباء : الحجج التى تنجيهم ، يتساءلون : أى يسأل بعضهم بعضا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه ـ يكون وبالا على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب ـ أردف ذلك ببيان مايحصل فى هذا اليوم من الإهانة والتقريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون فى الجواب عنها ويشتد عليهم الخطب حين لايجدون مخلصا ومعذرة تبرر لهم ما كانوا يقترفون فيسألهم أولا عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو ينتصرون ، ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم عما أجابوا به الرسل حين دعوهم إلى الإيمان بربهم ، فتخفى عليهم الحجج التى

تنجيهم من العذاب الذى لا مفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقّنه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ، ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الأعمال ، وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

الإيضاح

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى رب العزة هؤلاء الذين يضلون الناس ويصدون عن سبيل الله فيقول لهم : أين شركائى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم لى شركاء ـ ليخلّصوكم من هذا الذى نزل بكم من العذاب .

وهذا السؤال للإهانة والتحقير ، لأنهم عرفوا بطلان ما كانوا يفعلون .

ونحو الآية قوله « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

ثم ذكر جواب هؤلاء الرؤساء الدعاة إلى الضلال فقال :

(قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا) أى قال رءوس الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » فدخلوا النار : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويناهم باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منا لهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإلجاء ـ فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك : إن تبعة غيِّهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعيا إلى الكفر ، فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان بما وضع من الأدلة العقلية ، و بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر داعيا إلى الإيمان .

ونحو ذلك قوله حكاية عن الشيطان « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ» وقوله لإبليس «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» فقوله : إلا من اتبعك يدل على أن ذلك الاتباع من قِبَل أنفسهم ، لامن إلجاء الشيطان إلى ذلك .

ثم زاد الجملة الأولى توكيداً بقوله :

(تبرأنا إليك) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصى اتباعا لهوى أنفسهم ، فلا لوم علينا فى الحقيقة بسببهم .

ونحو الآية قوله « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » .

ثم ذكر ما هو كالعلة لنفى الشبهة عنهم فقال :

(ما كانوا إيانا يعبدون) أى هم ما كانوا يعبدوننا ، و إنما كانوا يعبدون الأوثان بما زينت لهم أهواؤهم .

ثم طُلِب إليهم دعاء الشركاء توبيخا لهم وتهكما بهم فقال :

(وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى وقيل للمشركين بالله الآلهةَ والأنداد فى الدنيا : ادعوا آلهتكم الذين زعمتم جهلا منكم شركتهم لله ، ليدفعوا العذاب عنكم ، فدعوهم لفرط الحيرة وغلبة الدهشة فلم يجيبوهم عجزاً منهم عن الإجابة

والمقصد من طلب ذلك منهم فضيحتهم على رءوس الأشهاد بدعاء من لا نفع له ولا فائدة منه .

ثم بين حالهم حينئذ وتمنيهم أن لو كانوا وفقوا فى الدنيا إلى سلوك طريق الهدى والرشاد فقال :

(ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى وأيقن الداعون والمدعوون أنهم صائرون إلى النار لا محالة ، وودّوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين المؤمنين فى الدنيا .

ونحو الآية قوله « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً » .

و بعد أن سئلوا عن إشراكهم بالله توبيخا لهم ، سئلوا عن تكذيبهم للأنبياء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين؟) أى ويوم ينادى المشركين ربهم وقد برز الناس فى صعيد واحد ، منهم المطيع ومنهم العاصى ، وقد أخذ بأنفاسهم الزحام وتراكبت الأقدام على الأقدام ، فيقول لهم: ماذا أجبتم المرسلين فيما أرسلناهم به إليكم من دعائكم إلى التوحيد والبراءة من الأوثان والأصنام ؟.

ثم بين أنهم لايحارون جوابا ، ولا يجدون من الحجج ما يدافعون به عن أنفسهم فقال :

(فعميت عليهم الأنباء يومئذ) أى فخفيت عليهم الحجج ولم يجدوا معذرة يجيبون بها ، فلم يكن لهم إلا السكوت جوابا ، ثم ذكر أنه تخفى عليهم كل طرق العلم التى كانت تجديهم فى الدنيا فقال :

(فهم لايتساءلون) أى فلا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لما اعتراهم من الدهشة وعظيم الهول ، ولتساويهم جميعا فى عمى الأنباء عليهم والعجز عن الجواب .

و إذا كان الأنبياء لهول ذلك اليوم يتعتعون فى الجواب عن مثل ذلك السؤال و يفوضون الأمر إلى علم الله كما قال « يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ؟ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » فما ظنك بهؤلاء الضلال ؟.

و بعد أن ذكر حال المعذبين من الكفار ومايجرى عليهم من التوبيخ والإهانة أتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيبا فى التوبة وزجراً عن الثبات على الكفر فقال :

(فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) أى فأما من تاب من المشركين ، وراجع الحق ، وأخلص لله بالألوهة ، وأفرد له العبادة ، وصدّق نبيه ، وعمل بما أمره الله فى كتابه على لسان نبيه ، فهو من الفائزين الذين أدركوا طَلبتهم وفازوا بجنات النعيم خالدين فيها أبداً .

وقد تقدم أن ذكرنا فى كثير من المواضع أن (عسى) يراد بها فى الكتاب الكريم الإعداد وتوقع حصول ما بعدها من الفوز والنجح لما طلبوا .

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

الخيرة والتخير :الاختيار باصطفاء بعض الأشياء وترك بعض ، سبحان الله : أى تنزيها لله أن ينازعه أحد فى الاختيار ، تكنّ : أى تخفى ، و يعلنون : أى يظهرون ، الحكم : القضاء النافذ فى كل شىء دون مشاركة لغيره فيه .

المعنى الجملى

بعد أن وبخهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم ـ أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لا من حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .

الإيضاح

(وربك يخلق ما يشاء ويختار) أى وربك يخلق ما يشاء خلقه ، وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى ما يريد أن يصطفيه ويختاره ، فيختار أقواما لأداء الرسالة وهداية الخلق وإصلاح ما فسد من نظم العالم ، ويميز بعض مخلوقاته عن بعض ويفضله بما شاء ، ويجعله مقدما عنده ، وليس لهم إلا اتباع ما اصطفاه ، وهو لم يصطف شركاءهم الذين اختاروهم للعبادة والشفاعة ، فما هم إلا فى ضلال مبين ، صدوا عن عمل ما يجب عليهم فعله طاعة لله ورسوله ، وتصدّوا لما ليس من حقهم أن يفعلوه بحال .

ونحو الآية قوله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » وقال الشاعر :

العبد ذو ضجر ، والرب ذو قدر والدهر ذو دول والرزق مقسوم

والخير أجمع فيما اختار خالقنا وفى اختيار سواه اللوم والشومُ

وروت عائشة عن أبى بكر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أمرا قال « اللهم خِر لى واختر لى » وروى أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له « يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات ، ثم انظر إلى ما يسبق إليه قلبك ، فإن الخير فيه » .

و يستحسن ألّا يقدم أحد على أمر من الأمور حتى يسأل الله الخيرة فى ذلك ، بأن يصلى ركعتين صلاة الاستخارة ، يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفى الركعة الثانية « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » .

وعن جابر بن عبد الله قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاقدُرْه لى و يسره لى ، ثم بارك لى فيه ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم رضنى به ، قال : و يسمى حاجته .

ثم أكد هذا وقرره بقوله :

(ما كان لهم الخيرة) أى ليس لهم أن يختاروا على الله شيئا ، وله الخيرة عليهم ، فله أن يرسل من يشاء رسولا على حسب مايعلمه من الحكمة والمصلحة دون أن يكون ذلك منوطا بمال أو جاه كما خيل إلى بعض المشركين فقالوا « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

ثم نزه سبحانه نفسه أن ينازعه فى سلطانه أحد فقال :

(سبحان الله وتعالى عما يشركون) أى تنزيها له وعلوا عن إشراك المشركين ، فليس لأحد أن ينازع اختياره أو يزاحمه فيه ، لعلمه باستعداد خلقه وصلاحيتهم للاصطفاء ، فإذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يهدى أحداً ممن يحب ، أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله لهم : ليس لكم من الأمر شىء ، فلا النبى صلى الله عليه وسلم بقادر على هدى عمه ، ولا أهل مكة يصلون إلى أن تكون الرسالة فى عظمائهم .

ثم بين أن اختياره تعالى مبنى على العلم الصحيح لا اختيارهم فقال :

(وربك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون) أى إن اختياره من يختار منهم للإيمان به مبنى على علم منه بسرائر أمورهم و بواديها ، فيختار للخير أهله فيوفقهم له ، ويولّى الشر أهله ويخلّيهم و إياه .

ونحو الآية قوله «سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » .

ولما كان علمه بذلك جاء من كونه إلها واحداً فرداً صمداً ، وكان غيره لا يعلم من من علمه إلا ما علمه قال :

(وهو الله لا إله إلا هو) أى وهو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ولا يحيط الواصفون بكنه عظمته ، وهو العليم بكل شىء ، القادر على كل شىء .

ثم ذكر بعض صفات كماله فقال :

(له الحمد فى الأولى والآخرة) أى هو المحمود فى جميع ما يفعل فى الدنيا والآخرة ، لأنه المعطى لجميع النعم عاجلا وآجلا .

(وله الحكم) النافذ فى كل شىء ، فلا معقّب لحكمه ، وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

(و إليه ترجعون) يوم القيامة فيجزى كل عامل جزاء عمله إن خيراً و إن شرا ، ولا يخفى عليه منهم خافية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، والسرمد : الدائم المتصل ، قال طرفة :

لعمرك ما أمرى علىّ بغُمَّة نهارى ولا ليلى على بسَرْمَد

تسكنون فيه : أى تستقرون فيه من متاعب الأعمال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من المنن ـ أردف هذا بتفصيل مايجب أن يحمد عليه منها ولا يقدر عليها سواه .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله : أيها القوم أخبرونى إن جعل الله عليكم الليل دائماً لانهارله يتبعه إلى يوم القيامة ، أىّ معبود غيرالله يأتيكم بضياء النهار فتستضيئون به ؟

وفى هذا الأسلوب من التبكيت والتقريع والإلزام ما لايخفى .

(أفلا تسمعون ؟) مايقال لكم سماع تدبر وتفكر فتتعظوا وتعلموا أن ربكم هو الذى يأتى بالليل ويزيل النهار إذا شاء ، وإذا أراد أتى بالنهار وأذهب الليل ، ولايقدر على ذلك سواه .

(قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟) أى أخبرونى إن جعل الله عليكم النهار دائما لا ليل معه أبداً إلى يوم القيامة ، أىّ المعبودات غير الله الذى له عبادة كل شىء يأتيكم بليل تستقرون فيه وتهدأون ؟

(أفلا تبصرون؟) الشواهد المنصوبة الدالة على القدرة الكاملة ، فتعلموا بذلك أن العبادة لاتصلح إلا لمن أنعم عليكم بذلك دون غيره ، ومن له القدرة التى خالف بها بين الليل والنهار .

ثم بين أن المخالفة بينهما من فضله تعالى ورحمته فقال :

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) أى ومن رحمته بكم أيها الناس جعل لكم الليل والنهار ، وخالف بينهما ، فجعل الليل ظلاما لتستقروا فيه راحة لأبدانكم من تعب التصرف نهارا فى شئونكم المختلفة ، وجعل النهار ضياء لتتصرفوا فيه بأبصاركم لمعايشكم وابتغاء رزقه الذى قسمه بينكم بفضله .

(ولعلكم تشكرون) أى ولتستعدوا لشكره على إنعامه عليكم ، وتخلصوا له الحمد ، لأنه لم يشركه فى إنعامه عليكم شريك ، ومن ثم ينبغى ألا يكون له شريك يُحْمد .

والخلاصة : إن الليل والنهار نعمتان تتعاقبان على مرِّ الزمان ، والمرء فى حاجة إليهما ، إذ لاغنى له عن الكدح فى الحياة لتحصيل قوته ، ولا يتسنى له ذلك على الوجه المرضى لولا ضوء النهار ، كما لا يكمل له السعى على الرزق إلا بعد الراحة والسكون بالليل ، ولا يقدر على شىء من ذلك إلا الله الواحد القهار .

وجاء تذييل الآيتين بقوله (أفلا تسمعون ؟) ، (أفلا تبصرون ؟) لبيان أنهم لما لم ينتفعوا بالسمع والبصر نزلوا منزلة من لايسمع ولا يبصر .

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) .

شرح المفردات

ونزعنا : أى أحضرنا من قولهم : نزع فلان بحجة كذا إذا أحضرها وأخرجها ، والشهيد : هو نبى الأمة يشهد عليها بما أجابته حين أرسل إليها ، وضل : أى غاب .

المعنى الجملى

بعد أن وبخ المشركين أولا على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله ـ عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم ثانيا ببيان أن إشراكهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى كما يرشد إلى ذلك قوله (قل هاتوا برهانكم)

الإيضاح

(ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى ويوم ينادى ربك ـ أيها الرسول ـ هؤلاء المشركين ، فيقول لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ليخلّصوكم مما أنتم فيه .

وهذا النداء للتوبيخ والتقريع على رءوس الأشهاد على عبادة غير الله ، للاشعار بأنه لاشىء أجلب لغضبه تعالى من الإشراك به ، كما أنه لاشىء أدخل فى مرضاته من توحيده عز وجل .

(ونزعنا من كل أمة شهيداً) أى وأحضرنا من كل أمة شهيدها وهو نبيها الذى يشهد عليها بما أجابته أمته فيما آتاهم به عن الله برسالته .

ونحو الآية قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » .

وهذا فى موقف من مواقف القيامة ، وفى موقف آخر يكون الشهداء هم الملائكة

كما قال تعالى : « وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ » .

ثم بين ما يطلب منهم بعد هذه الشهادة فقال :

(فقلنا هاتوا برهانكم) على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء مع إعذار الرسل إليكم ، وإقامة الحجج عليكم ، فلم يحيروا جوابا ، وأيقنوا حينئذ بعذاب دائم ، ونار تتلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

وحينئذ يستبين لهم خطأ ما كانوا يفعلون كما قال :

(فعلموا أن الحق لله) أى فعلموا حينئذ أن الحجة البالغة لله عليهم ، وأن خبره هو الصادق ، وأنه لا يشركه فى الألوهية شىء .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وغاب عنهم ما كانوا يتخرصون به فى الدنيا ويكذبون به على ربهم من الأباطيل والأضاليل .

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) .

شرح المفردات

فبغى عليهم : أى تكبر وتجبر ، والكنز: المال المدفون فى باطن الأرض، والمراد به هنا المال المدّخر ، ومفاتحه : أى خزائنه واحدها مفتح (بفتح الميم) وتنوء : من ناء به الحمل ينوء : إذا أثقله حتى أماله . قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فلأيًا قيامُها وتمشى الهُوَينى عن قريب فتَبْهَرُ

والعصبة : الجماعة الكثيرة يتعصب بعضهم لبعض بلا تعيين عدد خاص ، والقوة : الشدة ، لاتفرح : أى لاتبطر وتتمسك بالدنيا ولذاتها حتى تتلهى عن الآخرة ، قال بيهس العذرى :

ولست بِمِفْراح إذا الدهرُ سرَّنى ولا جازع من صَرْفه المتقلِّبِ

والدار الآخرة : أى ثواب الله بإنفاق المال فيما يوصل إلى مرضاته ، على علم عندى : أى على حسن التصرف فى المتاجر وا كتساب الأموال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حديث أهل الضلالة ومايلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رءوس الأشهاد بما يفضحهم و يبين لهم سوء مغبتهم . أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلا يضرب للناس فى ظلمه وعتوّه ، و يستبين لهم من سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة . والندم على ما فعلوا :

ندِم البُغاةُ ولاتَ ساعةَ مَنْدَم والبغْىُ مرْتَعُ مبتَغِيه وَخِيمُ

الإيضاح

(إن قارون كان من قوم موسى) أى إنه كان من بنى إسرائيل ، لأنه ابن عم موسى ، فموسى هو ابن عمران بن قاهَثَ بن لاوَى بن يعقوب عليه السلام ، وقارون بن يصْهُر بن قاهث الخ .

وكان يسمى النور لحسن صورته ، وكان أحفظ بنى إسرائيل للتوراة ، وأقرأهم لها ، لكنه نافق كما نافق السامرى وقال : إذا كانت النبوة لموسى ، والمذبح والقربان لهرون ، فما لى إذاً ؟

(فبغى عليهم) أى تجاوز الحد فى احتقارهم . والقرابة كثيراً ما تدعو إلى البغى

ثم ذكر سبب بَغيه وعتوه بقوله :

(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى وأعطيناه المال المذخور الذى يثقل حمل مفاتيح خزائنه على العدد الكثير من الأقوياء من الناس.

روى عن ابن عباس أن مفاتيح خزائنه كان يحملها أربعون رجلا من الأقوياء ، وكانت أربعمائة ألف يحمل كل رجل عشرة آلاف ، ولا شك أن مثل هذا التحديد يحتاج إلى سند قوى يعسر الوصول إليه ، ومثل هذا الأسلوب يدل على إرادة الكثرة دون تحديد شىء معين .

و بعد أن ذكر بغيه ذكر وقته فقال :

(إذ قال له قومه لا تفرح) أى إنه أظهر التفاخر والفرح بما أوتى حين قال له قومه من بنى إسرائيل : لاتظهر الفرح والبطر بكثرة مالك ، فإن ذلك يجعلك تتكالب على جمع حطام الدنيا ، وتتلهى عن شئون الآخرة ، وفعل مايرضى ربك .

ثم علل النهى عن الفرح بكونه مانعا محبة الله فقال :

(إن الله لايحب الفرحين) أى إنه تعالى لا يكرم الفرحين بزخارف الدنيا ولا يقرّبهم من جواره ، بل يبغضهم و يبعدهم من حضرته .

وأثر عن بعضهم أنه قال : لايفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ، أما من يعلم أنه سيفارقها عن قريب فلا يفرح بها ، وما أحسن ما قال المتنبي :

أشـــدُّ الغم عندى فى سرورٍ تيقن عنه صاحبُه انتقالا

وأحسن منه وأوجز قوله سبحانه : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » .

ثم نصحوه بعدة نصائح فقالوا :

(١) (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) أى واستعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ، وفى الحديث : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سَقَمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » .

(٢) (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أى ولا تترك حظك من لذات الدنيا فى مآكلها ، ومشاربها وملابسها ؛ فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، وروى عن ابن عمر : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » وعن الحسن : « قدِّم الفضل وأمسك ما يبلغ »

(٣) (وأحسن كما أحسن الله إليك) أى وأحسن إلى خلقه ، كما أحسن هو إليك فيما أنعم به عليك ، فأعِنْ خلقه بمالك وجاهك ، وطلاقة وجهك ، وحسن لقائهم ، والثناء عليهم فى غيبتهم .

(٤) (ولا تبغ الفساد فى الأرض) أى ولا تصرف همتك بما أنت فيه إلى الفساد فى الأرض ، والإساءة إلى خلق الله .

ثم أتبعوا هذه المواعظ بعلتها فقالوا :

(إن الله لايحب المفسدين) أى إن الله لا يكرم المفسدين ، بل يهينهم ويبعدهم من حظيرة قربه ، ونيل مودته ورحمته .

ثم بين أنه مع كل هذه المواعظ أبى وزاد فى كفران النعمة فقال :

(قال إنما أوتيته على علم عندى) أى قال قارون لمن وعظوه : إنما أوتيت هذه الكنوز لفضل علم عندى ، علمه الله منى ، فرضى بذلك عنى ، وفضلنى بهذا المال عليكم .

وتلخيص ذلك : إنى إنما أعطيته لعلم الله أنى له أهل .

ونحو الآية قوله « وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ » .

ثم رد الله عليه مقاله بقوله :

(أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً) أى أنسى ولم يعلم ، حين زعم أنه أوتى الكنوز لفضل علم عنده ، فاستحق بذلك أن يؤتى ما أوتى ؟ أن الله قد أهلك من قبله من الأمم ، من هم أشد منه بطشا ، وأكثر جمعا للأموال ؟ ولو كان الله يؤتى الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ورضاه عنه ، لم يهلك من أهلك من أرباب الأموال ، الذين كانوا أكثر منه مالا ، لأن من يرضى الله عنه ، فمحال أن يهلكه وهو عنه راض ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطا ، ألم يشاهد فرعون وهو فى أُبَّهَة مُلْكه ، وحقق أمره يوم هُلْكه .

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حاله ، وتوبيخ له على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك .

وبعد أن هدده سبحانه بذكر إهلاك من قبله من أضرابه فى الدنيا ــ أردف ذلك بتهديد المجرمين كافة بما هو أشد من عذاب الآخرة وهو عدم سؤالهم عن ذنوبهم ، إذ أنه يؤذن بشدة الغضب عليهم ، والإيقاع بهم لامحالة ، فقال : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » أى إنه تعالى حين إرادة عقابهم لا يسألهم عن مقدار ذنوبهم

ولا عن كنهها ، لأنه عليم بها ، ولا يعاتبهم عليها كما قال تعالى: «وَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ» وقال : « وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ » .

ونحو الآية قوله « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » .

وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقريع وإهانة ، كما جاء فى قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ كَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْ كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) .

شرح المفردات

الحظ : البخت والنصيب ، العلم : هو علم الدين ، وما ينبغى أن يكون عليه المتقون ، ويل : أصلها الدعاء بالهلاك ، ثم استعملت فى الزجر عن ترك ما لا يرتضى ، وخسف المكان : أى غار فى الأرض ، وخسف الله به الأرض خسفا : غاب به فيها كما قال : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ » وفئة : أى جماعة من المنتصرين ؛

أى الممتنعين عن عذابه ، يقال : نصره من عدوه فانتصر : أى منعه منه فامتنع ، وى : كلمة يراد بها التندم والتعجب مما حصل ، يقدر : أى يضيق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بغى قارون وعتوّه وجبروته ، وكثرة ما أوتيه من المال الذى تنوء به العصبة أولو القوة ـ أردف ذلك بتفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه ، فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى حُلِيّه وحُلله ، والعدد العديد من أعوانه وحشمه ، قصداً للتعالى على العشيرة ، وأبناء البلاد ، وفى ذلك كسر للقلوب ، وإذلال للنفوس ، وتفريق للكلمة ، فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شَذَرَ مَذَرَ ، وقد غرت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لا همّ لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد عليهم من وفقهم الله لهدايته بأن ما عنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوتى قارون ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله إلى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ؛ لا لفضل منزلته عنده وكرامته لديه كما بسط لقارون ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض .

الإيضاح

(فخرج على قومه فى زينته) أى فخرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر من مراكب وخدم وحشم ، مريدا بذلك التعالى على الناس ، وإظهار العظمة ، وذلك من الصفات البغيضة ، والافتخار الممقوت ، والخيلاء المذمومة لدى

عقلاء الناس من جرّاء أنها تقوّض كيان المجتمع ، وتفسد نظمه ، وتفرق شمل الأمة ، وتقسمها طبقات ، وفى ذلك تخاذلها ، وطمع العدو فى امتلاك ناصيتها .

وفى هذا تحذير لنا أيما تحذير ، فكثير ممن يظهرون النعم ، إنما يريدون التعالى والتفاخر ، وكم ممن يقيم الزينات ، أو يصنع الولائم لعُرْس أو مأتم ، لا يريد بذلك إلا إظهار ثرائه ، وسعة ماله بين عشيرته وبنى جلدته ، فيكون قارون زمانه ، وتكون عاقبته الخسف لما أوتيه من مال ، ويذهب الله ثراءه ، ويجعله عبرة لمن اعتبر .

فالكتاب الكريم ما قص علينا هذا القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالى ليس وبالها فى الآخرة فحسب ، بل يحصل شؤمها فى الدنيا قبل الآخرة ، كما حصل لكثير من المسلمين اليوم .

وقد رُوى عن مفسرى السلف فى زينة قارون ما يجعلنا نقف أمامه موقف الحذر ، ويجعلنا نعتقد أن الإسرائيليات سَداه ولُحمته ، فمن ذلك ما روى عن قتادة قال : ذكر لنا أنه خرج هو وحشمه ، على أربعة آلاف دابة ، عليهم ثياب حمر منها ألف بغلة بيضاء ، وعلى دوابهم قطائف الأرْجُوان . وقال مقاتل : خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ، ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول ، وعليهم الثياب الأرجوانية ، ومعه ثلاثمائة جارية بيض ، عليهن الحُلىّ والثياب الحمر يركبن البغال الشُّهْب .

وحين رآه قومه على هذه الشاكلة انقسموا فرقتين :

(١) (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) أى قال من كان همه الدنيا وزينتها : ياليت لنا من الأموال والمتاع مثل ما لقارون منها ، حتى ننعم عيشاً ، ونتمتع بزخارف الحياة ، كما يتمتع .

وإن مثل هذا التمنى ليشاهد كل يوم ، وفى كل بلد ، وفى كل قرية ، فترى الرجل والشاب ، والمرأة والفتاة ، يتمنى كل منهم أن يكون له مثل ما أوتى فلان

وفلانة من ثوب جميل ، أو دابة فارهة ، أو مزرعة يحصد غلتها ، أو قصر مشيد ، أو نحو ذلك .

ثم علقوا تمنيهم وأكدوه بقولهم :

(إنه لذو حظ عظيم) أى إن الله قد تفضل عليه ، وآتاه من بسطة الرزق حظا عظيما ونصيباً كبيراً يغبط عليه .

والقائلون هذه المقالة : إما جماعة من المؤمنين قالوا ذلك جريا على الجبلة البشرية من الرغبة فى السعة واليسار ، وإما عصبة من الكفار والمنافقين تمنوا مثل ماله ، ولم يتمنوا زوال نعمته ، ومثل هذا لا ضرر فيه .

(٢) (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) أى وقال الذين أوتوا العلم بما أعد الله لعباده فى الآخرة وصدقوا به ردّا على أولئك المتمنين : ثبًا لكم وخُسراً ، كيف تتغالون فى طلب الدنيا ، ويسيل لعابكم عليها ، وما عند الله من ثواب فى الآخرة لمن صدق به ، وآمن برسله ، وعمل صالح الأعمال خير مما تتمنون ، فإن هذا باق ، وذاك فان ، وهذا خالص مما يشوبه وينغصه من الأكدار ، وذلك مشوب بالأحزان والمنغصات .

ثم بين من يعمل بهذه النصيحة فقال :

(ولا يلقاها إلا الصابرون) أى ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل قسم من المنافع والمضار ، وأنفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه وللمجتمع ، وكان قدوة صالحة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

ثم ذكر ما آل إليه بطره وأشره من وبال ونكال فقال :

(فخسفنا به وبداره الأرض) أى فزلزلت به الأرض وابتلعته جزاء بطره وعتوه ،

وفى هذا عبرة لمن اعتبر ، فيترك التعالى والتغالى فى الزينة ، لئلا يخسف الله به وعاله الأرض .

وقد غفل كثير من الناس عن المقصد من المال فأنفقوه قاصدين به الرياء والمباهاة ، فضاعت دورهم وأموالهم ، وأصبحت ملكا لغيرهم ، وهذا هو الخسف العظيم ؛ وماخسف قارون بشىء إذا قيس بهذا ، فإن الخسف الآن خسف الأمم ، لاخسف الأفراد ، فكل بلد من بلاد الإسلام يدخله الغاصب يصبح أهله عبيداً له وضحية مطامعه ، وخسف أمة أدهى من خسف فرد ، فليخسف الفرد ، ولتبق الأمة ، وهكذا دخلت البلاد تباعا فى ملك الغاصب ، واحدة إثر أخرى ، ولم يبق منها إلا من رحم الله ، وما ذاك إلا بجهلها لدينها ، وعدم اتباعها أحكامه ، وغفلتها عن مقاصده .

ثم بين أنه لم يجد له شفيعاً ولا نصيراً يدفع عنه العذاب حينئذ فقال :

(فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أى ما أغنى عنه ماله ، ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله ولا نكاله ، ولا استطاع أن ينتصر لنفسه .

وقصارى ذلك : إنه لا ناصر له من غيره ولا من نفسه ، فكيف يكون للأمة الغافلة عن أوامر دينها ، الجاهلة بمقاصد شريعتها فى إنفاق الأموال أن تجد مناصاً من خراب الديار ، وإضاعة المجد الطارف والتالد ، وأن تقع فريسة للغاصبين ، الذين يسومونها الخسف دون شفقة ولا رحمة ، وقد كان ذلك جزاءا وفاقا ، لجهلها وسوء تصرفها ، وظلمها لأنفسها ، ولا يظلم ربك أحدا ، وهكذا حال من تصرف فى ماله تصرف السفهاء ، وركب رأسه ، وصار يبعثره يمنة ويسرة ، فإنه سيندم ولات ساعة مندم .

وقد أبان الكتاب أن النصر للصابرين ، فهو أثر لازم للصبر على حفظ المال ، وحفظ الشهوات والعقول ، وكل الفضائل التى حث عليها الدين ، وسلك سبيلها السلف الصالح .

وقد حكى المفسرون فى أسباب الخسف أمورا كثيرة هى غاية فى الغرابة يبعد أن تصدقها العقول ، ومن ثم قال الرازى : إنها مضطربة متعارضة ، فالأولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن ، وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب اهـ .

ولما شاهد قوم قارون ما نزل به من العذاب ، صار ذلك زاجراً لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى ، وداعياً إلى الرضا بقضاء الله وبما قسمه ، وإلى إظهار الطاعة والانقياد لأنبيائه ورسله ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وى كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى فلما خسف الله بقارون الأرض ؛ أصبح قومه يقولون : إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا ، لاتدل على رضا الله عن صاحبه ؛ فالله يعطى ويمنع ، ويوسع ويضيق ، ويرفع ويخفض ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، لا معقب لحكمه . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعا « إن الله قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان إلا من يُحِبّ » .

ولما لاح لهم من واقعة أمره أن الرزق بيد الله يصرفه كيف يشاء ، أتبعوه بما يدل على أنهم اعتقدوا أن الله قادر على كل ما يريد من رزق وغيره فقالوا :

(لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا) أى لولا لطف الله بنا لخسف بنا كما خسف به ، لأنا وددنا أن نكون مثله . ثم زادوا ما سبق توكيداً بقولهم :

(وى كأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله المكذبون برسله وبما وعدوا به من ثواب الآخرة ، كما كان شأن قارون .

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير ـ أعقب ذلك بذكر محل هذا الجزاء ، وهو الدار الآخرة ؛ وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث فى هذه الدار ؛ جزاء على الأعمال فى الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ؛ إلى ما لا يحيط به إلا علام الغيوب ، فضلا من الله ورحمة ؛ وجزاء السيئة مثلها ، لطفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

الإيضاح

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا) أى تلك الدار التى سمعت خبرها ، وبلغك وصفها ـ نجعل نعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحق و إعراضاً عنه ، ولا ظلم الناس ومعصية الله .

وثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنه أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » . وروى مسلم وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، فقال: إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » .

وروى أبو هريرة : «أنه جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان جميلا ، فقال : يارسول الله إنى رجل حُبِّب إلىّ الجمال ؛ وأعطيت منه ما ترى ؛ حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل ؛ أفمن ذلك ؟ قال : لا ؛ ولكن المتكبر من بطر الحق وغمط الناس » .

وعن عدى بن حاتم قال: «لما دخل على النبى صلى الله عليه وسلم ألقى إليه وسادة

وجلس على الأرض ؛ فقال : أشهد أنك لاتبغى علوا فى الأرض ولا فساداً فأسلم» .
أخرجه ابن مردويه .

(والعاقبة للمتقين) أى والعاقبة المحمودة ، وهى الجنة لمن اتقى عذاب الله بعمل الطاعات ، وترك المحرمات ، ولم يكن كفرعون فى الاستكبار على الله ، بعدم امتثال أوامره ، والارتداع عن زواجره ، ولا كقارون فى إرادة الفساد فى الأرض .

ثم بين ما يكون فى تلك الدار من جزاء على الأعمال فقال :

(من جاء بالحسنة فله خير منها) أى من جاء الله يوم القيامة بحسنة فله خير منها، فهو يضاعفها له أضعافا مضاعفة تفضلا منه ورحمة .

(ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) أى ومن أتى بسيئة فلا يجزى عليها إلا مثلها ، وهذا منه سبحانه شفقة وعدل .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؟ » .

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) .

شرح المفردات

فرض عليك : أى أوجب عليك ، ومعاد الرجل : بلده ، لأنه يتصرف فى البلاد ثم يعود إليه ، ظهيرا : أى معينا ، هالك : أى معدوم ، وجهه : أى ذاته ، الحكم : أى القضاء النافذ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بغى قارون واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه أردف هـذا بقصص محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه مع قومه ، وإيذائهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحه إياها متصوراً ظافرا .

الإيضاح

(إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إن الذى أوجب عليك العمل بأحكام القرآن وفرائضه ـ لرادّك إلى محل عظيم القـدر اعتدته وألفته ، وهو مكة ، والمراد بذلك عوده إليها يوم الفتح ، وقد كان للعود إليها شأن عظيم ، لاستيلاء رسول الله عليها عنوة ، وقهره أهلها ، وإظهار عز الإسلام ، وإذلال المشركين .

وهذا وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فى أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهرا ظافرا .

روى مقاتل أنه عليه السلام خرج من الغار (حين الهجرة) وسار فى غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجُحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام وقال له : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه السلام : نعم ، فقال جبريل :

فإن الله يقول : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادّك إلى معاد)

وهذه إحدى معجزاته صلى الله عليه وسلم لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر .

ولما قال المشركون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنك لفى ضلال مبين) نزل قوله تعالى :

(قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين) أى قل لمن خالفك وكذبك من قومك المشركين ومن تبعهم : ربى أعلم بالمهتدى منى ومنكم ، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، ومن تكون له الغلبة والنصرة فى الدنيا والآخرة ؟.

ثم ذكره سبحانه نعمه ، ونهاه عن معاونة المشركين ومظاهرتهم فقال :

(وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) أى وما كنت ترجو أيها الرسول أن ينزل عليك القرآن ، فتعلم أخبار الماضين من قبلك ، وماسيحدث من بعدك ، وما فيه من تشريع ، فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم ؛ وآداب هى منتهى ما تسمو إليه نفوسهم وتطمح إليها عقولهم ؛ ثم تتلو ذلك على قومك ، ولكن ربك رحمك فأنزله عليك .

ثم بين مايجب أن يعمله كفاء هذه النعم المتظاهرة فقال :

(فلا تكونن ظهيرا للكافرين) أى فاحمد ربك على ما أنعم به عليك بإنزاله الكتاب إليك ؛ ولا تكونن عونا لمن كفروا بربك ؛ ولكن فارقهم ونابذهم .

ثم شدد عزمه وقواه بألا يأبه بمخالفتهم فقال :

(ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) أى ولا تبال بهم ؛ ولا تهتم بمخالفتهم لك ؛ وصدهم الناس عن طريقتك ، فإن الله معك ومؤيدك ؛ ومظهر ماأرسلك به على سائر الأديان .

ثم أمره أن يصدع بالدعوة ؛ ولا يألو جهدا فى تبليغ الرسالة فقال :

(وادع إلى ربك) أى وبلغ رسالة ربك إلى من أرسلك إليهم ؛ واعبده وحده لا شريك له .

(ولا تكونن من المشركين) أى ولا تتركن الدعاء إلى ربك وتبليغ المشركين رسالتك ، فتكون ممن فعل فعل المشركين بمعصية ربه وخلافه أمره .

ثم فسر هذا وبينه بقوله :

(ولا تدع مع الله إلها آخر) أى ولا تعبد أيها الرسول مع الله الذى له عبادة كل شىء - معبودا آخر سواه .

ثم علل هذا بقوله :

(لا إله إلا هو) أى لأنه لا معبود تصلح له العبادة إلا الله ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

ثم بين صفاته فقال :

١ — (كل شىء هالك إلا وجهه) أى هو الدائم الباقى الحى القيوم الذى لا يموت إذا ماتت الخلائق ، كما قال : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصدق كلمة قالها لبيد : « ألا كل شىء ماخلا الله باطل » .

٢ — (له الحكم) أى له الملك والتصرف والقضاء النافذ فى الخلق .

٣ — (وإليه ترجعون) يوم معادكم ، فيجزيكم بأعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وصل ربنا على محمد وآله .

خلاصة ما تحويه السورة الكريمة من الأغراض

(١) استعلاء فرعون وفساده فى الأرض .

(٢) استضعافه بنى إسرائيل وقتله أبناءهم واستبقاؤه نساءهم .

(٣) منته تعالى على بنى إسرائيل بإنقاذهم من بأس فرعون وجعلهم أئمة فى أمر الدين والدنيا ووراثتهم أرض الشام .

(٤) إغراق فرعون وجنوده .

(٥) إلقاء موسى فى اليمّ ، والتقاط آل فرعون له ، ثم رده إلى أمه .

(٦) قتل موسى للقبطى ، ثم هربه إلى أرض مدين ، وتزوجه ببنت كاهنها ، وبقاؤه بها عشر سنين .

(٧) عودة موسى إلى مصر ، ومناجاته ربه .

(٨) معجزات موسى من العصا واليد البيضاء .

(٩) طلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هرون ليكون له وزيرا وإجابته لى ذلك .

(١٠) تبليغه رسالة ربه إلى فرعون ، وتكذيب فرعون له ، واستكباره فى الأرض بغير الحق .

(١١) إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بإخباره عن قصص الماضين ، دون أن يكون حاضرا معهم ، ولا أن يتعلم ذلك من معلم .

(١٢) إنكار قريش لنبوته ، بعد أن جاءهم بالحق من ربهم ، وقولهم إن ما جاء به سحر مفترى .

(١٣) إيمان أهل الكتاب بالقرآن وإعطاؤهم أجرهم مرتين .

(١٤) إثبات أن الهداية بيد الله ، لا بيد رسوله ، فلا يمكنه أن يهدى من يحب .

(١٥) معاذير قريش فى عدم إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم دحضها .

(١٦) بيان أن الله لا يعذب أمة إلا إذا أرسل إليهم رسولا ، حتى لا يكون لهم حجة على الله .

(١٧) نداء المشركين على رءوس الأشهاد ، وأمرهم بإحضار شركائهم ونداؤهم ، ليسألهم عما أجابوا به الرسل ، فلم يستطيعوا لذلك ردا .

(١٨) بيان أن اختيار الرسل لله ، لا للمشركين ، فهو الذى يصطفى من يشاء لرسالته .

(١٩) التذكير بنعمته على عباده باختلاف الليل والنهار .

(٢٠) شهادة الأنبياء على أممهم .

(٢١) ذكر قارون وبغيه فى الأرض ، ثم خسف الأرض به .

(٢٢) بيان أن ثواب الآخرة لا يكون إلا لمن لا يريد العلو فى الأرض ولا الفساد فيها .

(٢٣) مضاعفة الله للحسنات ، وجزاء السيئة بمثلها .

(٢٤) الإنباء بالغيب عن نصر الله لرسوله ، وفتحه لمكة .

(٢٥) بيان أن كل من فى الوجود فهو هالك ، إلا الله تبارك وتعالى .